الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر وفى نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
٣٠ فى مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الادارة
دار الرسالة بشارع المبدولى رقم ٣٤
عابدين — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠

العدد ٤٥ — ٩ شوال سنة ١٣٥٧ — أول ديسمبر سنة ١٩٣٨ — السنة الثانية

فهرس العدد

صفحة			
١١٣٠	غرام فنان	أقصوصة مصرية	بقلم الأستاذ دريني خشبة
١١٤٤	من قتل أباه ؟	للكاتب الانجليزى أرثر كونان دويل	بقلم الأستاذ محمد لطفى جمعة
١١٥٢	عفو الملك أسركاف	أقصوصة مصرية	بقلم الأديب نجيب محفوظ
١١٥٨	الفن	أقصوصة مصرية	بقلم الأستاذ محمود بك خيرت
١١٦٥	القاضى السعيد	للفيسوف الروسى تولستوى	بقلم الأديب السيد صلاح الدين المنجد
١١٦٩	حاجى بابا أصفهانى	للكاتب الانجليزى جيمز موير	بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

غرام فنان

قصة مصرية

بقلم الأستاذ دريني خشبة

كان يشدو طائفة من الفنون أحبها إليه النحت والتصوير ، وكان ضريب بجماليون اليوناني ، لم يصب قلبه قط إلى امرأة ، لأنه لم يكن يرى فى نساء العالم جميعاً (حواء) الرائعة التى يسيغها فنه ، وتستأهل أن تسكن معه فى فردوسه المنشود ...

وكانت تماثيله كثيرة وجميلة ، وتترجم عن نفس واسعة شاسعة ممتلئة بالأسرار والألغاز ... لكن تمثالا واحداً كان يصبح أجلها وأشدها روعة لو أنه صنعه ، وهو مع ذلك لم يفكر فيه ولو مرة واحدة، أو هو فكر فيه مرات لكنه لم يصنعه ... ذلك هو تمثال فتاة !

كنت ترى بين تماثيله الشحاذ المكفوف، والمسن المحتضر ، وبواب القصر ، وبازى الصيد ، والأفعى ذات القرون، والظبي ، والوعل، والكلب الحارس، والجمل ، والضب ، والكركى ، والحدأة الراغمة ... بيد أنك تجيل الطرف فى متحفه الرائع فلا ترى تمثال امرأة . على أن المرأة هي الملهمة الأولى للفنانين، وهي النبع الصافي الذى يتفجر بالمعجزات فى رؤوس المثالين والمصورين والشعراء ورجال الموسيقى ... هى أجمل باقة فى بستان الله ... هى أبهى نغمة تنطلق من أوتار الكمان ... هى ابتسامة الله الدائمة فى قلوب عباده المؤمنين ... هى الواحة ذات الظلال والأفياء وسط صحراء الحياة ... ومع ذلك فليس يرى الرائى تمثالها الجميل الفنان فى متحف رؤوف الفنان

وكان فى رؤوف وحشة وضيق وانقباض عن الناس ، كأنهم كانوا أعداءه ... فلم يكن يطيق أن يشغله أحدهم عن فنه ، أو أن يشترك معه فى أحلامه . خصوصاً إذا خرج للرياضة على عدوة النيل النائم فى مهبط الوادى ... حيث كان من دأبه أن يستغرق فى تأملاته يهدهدها خرير الماء وطنين النحل وغناء الأطيار ، وبعطرها النسيم بما يحمل من شذى وأرج

وكان صديقه طارق أعرف الناس بما جبل عليه من ذلك العزوف عن الناس . فكان يتردد عليه لماماً، بل لم يكن يزوره حتى يدعوه وحتى يلح عليه فى الدعوة ... فاذا زاره صمت عن الحديث حتى يبدأ رؤوف فيتكلم بمقدار . ولم يكن ذلك من طارق عن عى ولا حصر ، بيد أنه كان يفضل تلك الوسيلة فى التحدث إلى صديقه لما يعرفه عنه من قصد فى الكلام ، وتفضيل الايجاز الذى بقى بحاجة التفاهم على الثرثرة التى تتلف التفكير وتذهب بجمال المجالس

وكان طارق مع ذلك لا ينى يفكر فى حال صديقه ويجهد دائماً أن يكتشف سره ... لأن رؤوفاً كان فتى فيه من الشباب غضارة ونضارة ، ومثله لاجرم يصبى النساء بحسن لفتته ونافذ نظرته وانسجام قوامه وهندامه ... ثم هو فنان صادق الفن ... والفن حاسة سادسة فى الفنانين ، وليس معقولا أن يعيش الفنان بلا حب . لأن معنى ذلك أنه يعيش بلا قلب ، وهذا محال فى رؤوف ...

وقد وقف طارق مرة تلقاء تحفة باهرة من

روائعه ، وجعل يجيل فيها طرفه وخياله ، ثم يتعجب ، ويسائل نفسه : « إن صانع هذا الطاووس العجيب الذى وقف يناغل أنثاه على هذا النحو من الرسوخ فى فلسفة الحب ، لا بد أن يكون أعشق الناس . وتالله إن لصاحبي لسراً ، وإن وراء سره امرأة إن لم يكن تمثالها هنا فى ذلك المتحف ، فهو قائم من غير ريب فى قلبه ... »

وأقبل رؤوف يبتسم ، وحدج صديقه بنظرة ثم قال :

— « ما لك لصقت بهذا التمثال فلا تريد أن تريم يا طارق ؟ هل أعجبك ؟ »

— « وكيف لا يعجبنى وهو المفتاح الذهبى لقلبك الواسع الرحب ! »

— « ماذا تعنى ؟ »

— « أعنى أن تمثالك البديع قد أعانى على أن أفهمك »

— « لست أفهم !

— « رؤوف ! ! إجلس أحدثك حديثاً طالما أحببت أن أبدهك به ، لولا ما كان يخيفني من إحراجك »

— « وما ذاك جعلت فداك !

— « أنظر إلى طاووسك الجميل الرائع وقل لى ماذا أخفيت وراءه ؟ »

— « ماذا أخفيت وراءه ؟ لا شيء ! »

— « وفيم تحته إذن ؟ »

— « الفن من أجل الفن ! »

— « الفن من أجل الفن خرافة لا تعيش إلا فى الغرب يا صديقى . أما هنا ، أما فى جنبات هذا الوادى السعيد فقد عاش الفن من أجل الحياة قبل أن يعرف الغرب ما الفن ، وقبل أن يعرف هل يعيش الفن من أجل نفسه أم من أجل البيئة وأرباب البيئة من بني الانسان

— أنت تبالغ يا طارق ، فقد يعيش الفن من أجل الفن فى كل مكان حتى على ضفاف النيل ... ماذا تظن أنني أخفيت وراء هذا الطاووس ؟

— لست أظن !

— وماذا إذن ؟

— لأنى أعتقد أنك أخفيت قطعة من قلبك ! إن لم يكن قلبك كله !

— أنا أخفيت قلبي كله وراء قطعة من المرمر؟

— قد تكون تركته دون أن تشعر به ، إن لم تكن تعمدت إخفاءه ! وأنت فى هذا كالشاعر الذى يلف فؤاده فى كلمات منظومة ، والموسيقى الذى يرسل نفسه فى نغمات مرقومة ... كلكم سواء أيها الفنانون ، تنحتون وتصورون وتشعرون وتغنون ، وتحسبون أنكم تصنعون هذا من أجل الفن ، والناس مع ذاك يحسون آثاركم وهى تكاد تحترق مما فيها من حرارة

— وماذا تعنى يا طارق ؟

— أعنى الشيء نفسه الذى تبالغ فى إخفائه عنى وهو يأبى إلا أن يفوح كما يفوح شذى العطر لأنه أكثر منه عطراً وأشد عبقاً ! أعنى حبك يا رؤوف ! !

— آه فهمت !

— ألم تحاول أن تنحت تمثالاً لحبيبتك يارؤوف !

— إذا كانت لى حبيبة !

— ليس لك حبيبة وأنت مع ذاك فنان ؟

— أحتم أن يكون للفنان حبيبة ؟

— ذلك لا ريب فيه ؟

— ولو كان أعمى ؟

— ولو كان أعمى !

— ومن أين ينفذ الحب إلى فؤاد الأعمى ؟

— من أذنيه . . . فقد يكون صوت الأنثى أشد سحراً من مرآها !

— فاذا كان أصم ؟

— فمن جسمه باللمس ! أنسيت بضاضة الكواعب الأتراب يا صديقي الفنان ؟

— فاذا كان بليداً لا يحس ؟

— فمن أنفه ... إن للأنثى شميما كشميم الورد أو هو أطيب ؟

— لشد ما تضحكني ؟

— ولشد ما تتغابى علي !

— لا ، لن أتغابى عليك يا طارق . . . هلم في إثري .

وانطلقا إلى أقبية القصر

ودفع رؤوف باباً عتيقاً تعلقت به عشرات من بيوت العنكبوت ، فتدفق من داخل القبو ظلام داكن ، وانتشرت رائحة قديمة آسنة ... ثم أوما إلى صاحبه وقال :

— هنا يا طارق . . . هنا . . . لا وراء قطعة المرمر التي نحت منها الطاووس ...

— هنا ماذا يا رؤوف ؟

— ألا تفهمني ؟ هنا دفنت قلبي وحبي ، وقد آليت ألا أطلع إليهما ... وأنا أدعك لتبحث عنهما وحدك ، وإني منتظرك في مكتبي ! !

وانطلق رؤوف ، وفي عينه دمعة رقراقة ، وفي صدره آهة مكروبة ، وظل يترنح يمنة ويسرة حتى كان في مكتبه ، فانحط على كرسيه وهو لا يكاد يعي ...

ووقف طارق أمام القبو وهو موجس خيفة ... ثم مد رأسه في الظلام المنبعث من الغرفة الرطبة الآسنة ... فاذا رأى ؟

تماثيل ... تماثيل ... تماثيل ... ! !

تماثيل رائعة ناعمة ... عذاري وغانيات ... أجسام بضة طرية يكاد ماء الجمال يقطر من مرمرها الثمين ! بعضها واقف وبعضها جالس وبعضها منحن ! بعضها يرنو مفكراً كأنه يحلم ، وبعضها ينظر ويبتسم ، وبعضها تهمهم حول شفتيه أسرار وألغاز ...

لله تلك الغادة المدللة التي تجردت من ثيابها ونزلت إلى البركة تبترد من وهج الشمس ، وقد مدت ذراعيها اللدنتين تفرق القصب وسيقان البردى !

وهذه الراقصة التي تكاد تتأود في مرمرها الناعم فتروح وتجيء في فيض من أشعة البرتقال والبنفسج والورد الجوري ، تارة يلون الحاشية ، وتارة ينصب على القدمين ، ويرتفع حتى يكسو الفخذين ، ثم يتعالى حتى يغمر البطن والظهر ، ويعلو حتى ينضح النهد ويغسل رمانتيه ، ويشرئب حتى يبلغ الوجه الباسم المشرق الجميل المحيا ...

وتلك العذارء التي تطرحت فوق العشب عارية متجردة تستمتع بأشعة الشمس ، وأشعة الشمس السعيدة تقبل كل جزء من جسمها تصل إليه ألف قبلة ...

وهذه اللعوب الكعاب قد جلست مع حبيبها عند حفاف الغدير يصيدان السمك ، وقد لفت ذراعها حول كاهله ، وراحت تحدق في عينيه وتحملق

وتلك اللوحة العجيبة التي تمثل حديقة الأندلس أجمل حدائق القاهرة الفاروقية !! أواه ! يا للحبيب يثوى مع الحبيب فى ظل الدوحة الباسقة !! لقد أسندت الحمامة رأسها فوق صدر الالف الوامق ، وجعلت من شعرها المنسدودن كلة فوق كاهلها وكاهله ... !!

وهذه الجالسة فى غمر من أفياء الجميز تتلو قصة حبها ، وآدم الصغير جالس أمامها يقلب فى قدميها الخلابتين عينيه الجائعتين وهو موشك أن يأكلهما

وتلك الحبيبة النافرة تعدو ثم تعدو ، ويعدو حبيبها في إثرها ثم يعدو ...

وذاك التمثال العجيب الذى يمثل القبلة ! ما لك يا أجمل الفيان تذودين فمه الجائع الظمئ عن فمك الملتهب الريان ! أعطيه قبلة !

أوه ! من هذا السادر الحزين يذرف دمعه فوق طروس كتابه المفتوح !

ويحك أيها الساهر فى شرفته يرقب النجم ويناجى الكواكب !

سلام عليك أيها المتمزل فى منعطف الحديقة تجتر ذكرياتك وأشجانك !

حنانيك اللهم لهذا المصلى لك المسبح باسمك وقد بسط كفيه يطلب العون منك والغوث من لدنك

مسكين يارؤوف ! مسكين ياصديقى !

ما هذه الدنيا الحافلة الجميلة التى دفنتها فى ذلك القبو المظلم الرطب !

لك الله ! ما هذه الأمانى التى كدستها فى ذلك الديجور الموحش الرهيب !

لله آمالك ! لم حطمتها هنا وآثرت أن تعيش فى الدنيا وحدك !

* * *

وهرول طارق إلى الطابق العلوى حيث لقى صديقه المحطم المتهدم مستلقيا على كرسية الكبير ذى الوسائد وقد حمل رأسه بيديه ، وملء أساريره العابسة آلام وأحزان

— ماذا يارؤوف ؟

— ماذا ياأخى ؟! هل عرفت ؟

— عرفت كل شيء !

— كلا ! ما أحسبك عرفت شيئاً !

— بل عرفتك تماماً !

— هذا غرور ياصديقى !

— غرور ؟ ياعجباً ! وكيف يكون اهتدائى إلى قلبك غروراً ؟!

— قلبى ؟ وهل لى قلب ؟

— أحسن القلوب وأكبرها وأزكاها يارؤوف

— كيف عرفت هذا ؟ أمن أجل بضعة تماثيل لا قيمة لها ؟!

— وكيف لايكون لها قيمة وهى ثمرة حياتك

— وماذا ياطارق ؟

— وزهرة حبك يارؤوف !

— حبي ؟

— أجل حبك !

— وهل يحب من ليس له قلب ؟

— رؤوف !

— ماذا ياأخى ؟

— أراك قانطا من شيء ثمين ضاع من يديك فهل تخبرنى ما هو ؟

— لا ! لم يضع منى شيء ؛ فقد أحببت فنى ووهبت له حياتى وتفكيرى ... وعملت التماثيل الرائقة والصور الشائقة . مثلت العذارى والغانيات

والفتيان والعرائس ، وصورت الجنات والقصور والأرض والسماء والكواكب وأبدع ما فى هذا الوادى السحرى العجيب من آيات الخلود ... لقد كان النيل السمح العظيم يوحى إلي ما أوحى من قبل إلى فنانى الفراعنة . وكنت كلما أقفر قلبي فتحته له فغمره بكل جديد وطريف من آيات الالهام فتناولت منحتى أو ريشتى فأخرجت مارأيت ومالم تر. تقول إنى أضعت شيئاً؟ وماذا تظننى أضعت ياطارق؟

— هذا ما أحب أن أعرفه

— إذن فاعرف أنى لم أضع شيئاً !

— وهذه التماثيل ! لم دفنتها فى هذا القبو الرهيب الميت ؟

لأنه أحسن مكان يناسبها !؟

— أولئك العذارى ؟

— أجل !

— لقد كنت أحسبك تصنع لهن جنة فيقمن فيها خالدات ؟

— لو كن يستأهلن هذا منى أو من أى مخلوق !

— ولم لا يستأهلن هذا منك يا رؤوف ؟

— لأنهن أبالسة ... كدت أقول إبليسات !

— ولِمَه ؟

— لأنهن خُنَّنى جميعاً. أوه ! لقد استدرجتنى حتى فضحت سرى الذى كنت أوثر ألا يطلع عليه أحد ! ...

— أنا لم أستدرجك يا رؤوف ، بل أردت أن تريح قلبك قليلا مما ينوء به بالبوح لى ، فليس أنفع للصديق من صديق يقول له ويقول صديقه له ، أما أن تعيش في هذه الدنيا المترعة بالعجائب وحدك دون أن تستعين عليها بأحد ، فهو عناء لا يحتمله صبر إنسان

— أشكرك يا طارق ! لقد كنت تحسبنى أعيش للفن من أجل الفن .. فهل سرك أننى كنت أعيش للفن من أجل الحياة ؟

— سرنى كثيراً بل بهرنى ، وسيسرنى أن تعود فتصل أسبابك بهذه الأسباب التى تقطعت بينك وبين الماضى ؟

— هذا ما لن يكون أبداً !

— ولم لا يكون يا صديق ؟

— لأنك لم تجرب مثلى ... هلم بنا إلى القبو أقص عليك أروع القصص يا طارق ... إحمل هذا المصباح الأحمر، وذاك البرتقالى ، والثالث الأخضر، وسأحمل أنا ذاك البنفسجى ، وهذا الأصفر .. و ..

* * *

وانطلق الصديقان يطويان الدرج إلى أقبية القصر

لقد كانت أعصاب رؤوف تضطرب وتهتز كما تهتز أوتار العود إذا لمستها أنامل الموسيقى ، وكان جبينه ذو الأسارير يتفصّد بعرق بارد هو عرق الحمى التى ألهبتها فى قلبه الذكريات .. وكانت أنفاسه تتردد كأنها تحصى خفقات قلبه وضربات رئتيه .. وكانت عيناه الغائرتان اللتان انطفأ فيهما بريق الأمل تنظران إلى أعماق الماضى ، ثم تنقلبان حسيرتين

ودفع رؤوف باب القبو دفعاً يسيراً فانفتح ، وانقذفت من ظلماته فى قلبه حسرات ...

وقبل أن يلج نظر إلى طارق نظرة آسفة مكظومة ، ثم ذرف عبرة حزينة زلزلت فؤاد صديقه ثم قال :

— هنا يا طارق غيّبت فى الظلام آمالى منذ عامين ، واليوم فقط أعود فأدخل هذا الجحيم ،

ولولاك ما فعلت ، ولا أحببت أن أفعل . . .

ولم يتكلم طارق ، بل اقتحم القبو وراء صاحبه صامتاً ساكتاً

— أرأيت إلى هذه الفادة المتجردة التي تفرق القصب وسيقان البردى لتبترد في ماء البركة ؟ هذه هي الحبيبة الأولى ... يالها من ذكرى ! لقد نبض فؤادى نبضة غرامه الأول حينما لمحت هذه الفتاة تمشي وحدها على شاطىء البحر الأبيض في ذوب من أشعة القمر ... وكنت قبل ذاك أبحث عن غرامى ! خفق قلبي بشدة وعنف يا أخي طارق ... وتلعثمت ... لم أدر ماذا أقول لها ... لقد كنت أبحث عن كلمة واحدة أقولها لهـا فما استطعت ... ونظرت هي إلى ، ولم أكن أدرى أنها ممثلة ... أجل يا طارق ... لقد كانت ممثلة والممثلات ممثلات حتى في مواقف الحب العادية !

رشقت فؤادى بغمزة هائلة من جانب عينها الخبيثة ، فمادت الأرض تحتى ، وأيقنت أنها غرامى الذى أنشد ، وحبي الذي أشدو . . . ورغم أنها لم تبال بي ، فقد تبعتها ... وكان الليل ساكنا ، ريحه وبدرُه وبحرُه ... ومشينا كثيراً ... ثم التفتت إلى فجأة وقالت : « إن لم تنصرف فستضطرني لنداء الشرطى ؟! » فقلت لها : « إذا كنت جادة فإني منصرف . على أنني لست أتبعك لمجرد العبث ... إني أبحث عنك منذ زمان طويل ، وأرجو أن أكون قد وجدتك ! » . فقالت لى : « تبحث عني ؟ وهل كنت تعرفني ؟ » فقلت : « لا ... ولـكن قلبي كان يحدثني أنني سألقاك ... وها قد لقيتك ! » فقالت لى : « عجبا ! وهل تعرف من أنا ؟ » فقلت : « أعرف أنك أجمل حسان الاسكندرية ! » فقالت : « هذا أول الكذب ... لست من الاسكندرية » فقلت : « ومن أين إذن ؟ » فقالت فى سخرية : « وأنت ما شأنك ؟ انصرف قلت لك ! » فقلت : « وإن لم أنصرف ، أفتدعين الشرطى ؟ » قالت : « أجل سأدعوه ! » فقلت : « ولم يأتى الشرطى ؟ » فقالت : « ليسوقك إلى القسم ! » فقلت : « ويحرمنى من هذه الدنيا الجميلة ! من هذا القمر وذاك البحر وهذا النسيم ... ثم ... منك ومن التحدث إليك ؟ ما اسمك نشدتك الله ؟ » فقالت : « حُورية ! »

لقد ذكرت اسمها وكفى يا طارق !

وجلسنا على صخرة مشرفة على البحر ، وكانت ليلة ما أجملها ! لقد كانت الخبيثة تسحرنى بكلمات رنانة حفظتها لتلقيها على المسرح ، فيا ترى ، هل فكرت فى إلقائها فى أذنى عاشق ؟ ! إنني ما أزال أحفظ نتفاً من كلامها ، إسمع يا طارق : « أنت يا رؤوف تمطر حديثك بعبير الحب !! أوه يا رؤوف ! ما كان أحب إلىّ لو أنني عرفتك قبل أن أولد ، هناك ... هناك ... في الجنة التي طرد منها أبونا آدم ! لم لم تلقني قبل هذه الليلة يا رؤوف ؟ آه يا قاسى ! تقول إنك مثال ومصور ... هل فكرت فى تمثالى ! ستصنعه من مرمرتى ، أليس كذلك ؟ ! . . . إني أسألك كيف تهبه هذه الحرارة التي تحسها فى جسمى . هل يستطيع أن يتكلم يا رؤوف ؟ هل يسمع ؟ هل يرى ؟ لشد ما أحب أن يكون كذلك !! »

وكنت أنا ساذجاً يا صديقى ، وكانت كلماتها تسحرنى وتفعل أفاعيلها في نفسى ، لقد صدقتها جميعها ... وسافرت معى إلى هنا ! وكانت تتجرد من ثيابها فأعمر كل جسمها الفنان بالقبل ، ثم آخذ في صنع تمثالها ! لقد كانت جميلة حقاً ! لله ما كان

أروع صدرها وأرق خصرها وأنعم قدميها وساقيها. لقد كان فمها يلتهب كلما طبقت عليه قبلة ... وكانت قبلها تشحذ عبقريتي فاستودعتها جميعاً فم التمثال أنظر ... ألا تحس يا صديقي ، إن فمه الرقيق الدقيق يجذبك إليه في شدة وعنف لتقبله ؟ ولكن انتظر ... أغلق هذا الباب الكريه ... لا تنزعج فقد أحضرنا معنا كل المصابيح ...

هاهوذا المصباح البرتقالي.. سأضيء به حواشي التمثال . أوه ! لقد نسينا أن نوصل تيار الكهرباء إلى هنا ...

وانطلق رؤوف يوصل التيار ، وبقي طارق لحظة وحده يرمق التمثال وقد تضاعف جماله في نفسه بعد حديث رؤوف . ثم تقدم رؤوف إلى التمثال وراح يطبع على الفم الجميل الحلو ملايين القبل !

وسكر المسكين من القبل وفعلها في نفسه فما شعر إلا ورؤوف وراءه يضحك منه ملء شدقيه

— حسبك ياطارق . حسبك . إنه مرمر بارد !

— واخجلاه ؟ أوقد أقبلت يارؤوف ؟

— إذن ماذا عسيت كنت فاعلا لو رأيتها وخلوت إليها ؟!

— ها ها ... ها ها ها ... إغفر لي يا أخي فقد سحرتني حقاً !

— لا عليك ... أنظر إذن ...

ثم سلط الشعاع البرتقالي على حاشية التمثال فخيل إلى طارق أنه يسمى ... ثم غمر التمثال كله بصبغ البرتقال فبدا كأنه يرقص ، واستبدل المصباح بآخر وردي فلاحت حورية كأنها خارجة من حمام ساخن والدم الحار يتدفق في شرايينها !

— حسبك ... حسبك يا رؤوف ... لا تغير هذا المصباح ... الشعاع الوردي ... أللّه ... !

لكن رؤوفاً استبدل المصباح بآخر بنفسجي ، وشعاع البنفسج يبتعث في النفس رهبة لا كما يفعل عبير البنفسج الذي يثير فيها نشوة الحب !

وبعد أن انتهى هذا العرض الصوتي الذي بهر طارقاً وسحره عن نفسه ، أخذ رؤوف يتم قصة هذه التمثالة فقال :

— وانتهيت من صنع التمثال في شهر وبعض الشهر ... وكنت أحسبني أعيش مع حورية في جنة الفردوس طيلة هذه المدة ... قُبَل ! عناق لذيذ ! أحاديث أشهى من قطع الروض الموشى ! ضحكات كرنين الذهب ! ونظرات أسكر للنفس من حميا الخمر ! نسيت أهلها يا طارق ، ونسيت أهلي ... لقد نلت منها كل شيء إلا التفاحة ... التفاحة وحدها أقسم لك ! أجل لقد حاولت ذلك مدفوعاً بالحيوان الخبيث الذي يتغلغل في نفوسنا منذ آدم ... بيد أنها كانت تغضب وتثور وقد تنتهرني أحياناً وتعيرني بأنني فنان ، وأول الفروض على الفنان ألا يدنس روحه بهذا الوزر الذي يبوء بإثمه إن فعل ! لقد كانت تقول لي : « إنك رجل لست كسائر الناس ! إن الخيال هو رأس مالك فلا تشوهه بهذا الدنس ! إن تفاحة حواء هي شقاء آدم فلا تقربها ... إني سأحتقرك إذا أرغمتني على شيء من ذلك ! وسأفر فلن تراني إلى الأبد ! »

وعرضت عليها الزواج لأنني لم أعد أحتمل حياتنا على هذا النحو المطهر الحصور ، فرفضت لأنها فنانة ، ولأني أنا أيضا فنان !

— ولماذا يا حياتي ؟ لم لا يتزوج الفنانون ؟

— لأن الزواج ينضب المعين الذي يفيض عنه فنهم !

— وكيف ؟

— لأنهم بالزواج ينالون التفاحة المحرمة فيفسد ذوقهم ويسمج خيالهم ولا يعود شيء يلهب عواطفهم

ولما اشتد الجدل بيني وبينها وعدتني أنها سترى لنفسها ... وفي الصباح ... صحوت فلم أجدها في الغرفة ... ولم أجدها في القصر ... فرت ! فرت يا طارق ؟ ! وتبعتها إلى الاسكندرية ، وبحثت عنها حتى حفيت ، ثم اهتديت إلى مخبئها في قصر أفخم من قصري وأضخم ... وقد شهدتها تلبس اللآلىء وتقتني الجواهر ، فعرفت أنها وقعت على صيد أثرى مني . . . واختبأت مرة في حديقة خليلها أرقب مشهداً غرامياً بينها وبين الرجل الوجيه الذي استلبها مني .. وكدت أنقض عليهما أحطم رأسيهما لكني لم أفعل ، لأني ذكرت عندئذ أنها عادة ، وهي لن يدفع أكثر ، فربأت أن أذهب بدمها النجس !

ثم لقيتها بعد ذلك وحدها في حديقة الأزهار قاتلها الله ! ... لقد كانت هناك أجمل من كليوبطرة وسألتها عن حالها ! أي والله يا طارق سألتها عن حالها. لقد نسيت في تلك اللحظة كل ما قدمت من سوء إلي ! نسيت أنها رفضتني زوجاً لتقبل غيري مداعباً. نسيت أنها رفضت يد الله لتسقط في يد الشيطان ! نسيت أنها رفضت فناناً طاهر القلب لتتمرغ في وحل الرذيلة تحت أقدام الأغنياء ! نسيت ذلك كله، نسيت أنها لم تأبه بجميع القبل التي روينا بها في أفاويق الحب ونشوات الغرام ، فدلت على رثاء ونفاق ... ثم تقدمت إليها ذليلا ضارعاً أسألها العفو والمغفرة ! العفو والمغفرة ؟ ! هل تسمع ! ؟ هي التي تملك أن تعفو وتغفر بعد كل هذا ! وا أسفاه ! ما أضعف قلوب العاشقين !

ثم نظرت إلي شزراً ، وتبسمت مستهزئة ، وقالت لي : « كلا يا عزيزي ... ابحث عن غانية سواي فقد انتهى دورنا ! »

وتركتني وفي القلب حسرات تمزقه ، وفي الحشا عذاب وأوصاب .. ثم ذهبت لا تلوي على شيء وتبعتها لأرى ماذا ينتهي إليه مآلها ...

وا أسفاه عليها يا طارق ! لقد رأيتها تجلس إلى عصبة من الرعاع يلهون بها ويعبثون ... وهي وسطهم لا تحس كرامة ولا تشعر بآدمية... فعرفت أنها سقطت ... وهنا فقط ، مضيت لشأني ، غير آبه ولا آسف ولا مبال ...

* * *

هذا هو غرامي الأول يا طارق ...

أما ذاك ... فهو غرامي الثاني !

هذه الراقصة يا طارق ! الله كم من راقصة تحمل قلباً لا تتحلى بمثله ربات الخدور ! أبداً ما رأيت أطهر من هذه ولا أتقى !

لقد تلبثت عامين أجتر ذكريات حورية ، فتارة أبكي ، وتارة أسخر ، وتارة أتسلى بالتصوير وصنع التماثيل ... وكنت في ذلك كله كالتاجر الذي قام برأس ماله ، ثم قعد ملوماً محسوراً ... فهو يعلل النفس بالآمال ، ويداعبها بالأماني !

لقيتها في إحدى الصالات المعروفة بعد أن رقصت .. والناس في هذه الأماكن فوضى لا قانون لهم ولا عرف بينهم ... وأنت تتقدم إلى أي شئت كأنك تدخل محلا تجارياً لتشتري ، فاذا سرك الشيء دفعت الثمن وحملته ومضيت ، وإن لم يرقك تركته إلى ما سواه فان لم تجد ضالتك ، ذهبت مودعاً بالملق ، مشيعاً بتحيات الدهان ، وهم بذلك يرجون

ألا تلقى أحسن مما عندهم فتعود ...

وجدتها جالسة وحدها فجلست إليها دون رجاء أو استئذان ... وكلما ذكرت لفتاى حورية عند شاطئ البحر ، وجمال دلالها وروعته ، وتهديدها إياى باستدعاء الشرطي. كلما ذكرت ذلك ، وذكرت تأجرات ذاك المرقص ، أسفت ، وذهبت نفسى على غرامى الأول حسرات

ما أسهل الغزل هنا وما أيسره !

— عمى مساء يا حسناء

— عم مساء يا حبيبى

هكذا قلت لها وهكذا قالت لى ! . هل سمعت ؟ أنا حييتها هكذا دون مقدمات ولا مؤخرات !

ثم تبسمت تلك الابتسامة المصنوعة السهلة الآلية التى تعودت أن تتبسمها لكل امرئ رام منها شيئاً ... فقلت :

— لقد أحسنت هذه الرقصة جداً ! إنها من أصعب الرقصات التى شهدت ! قلت ذلك وأنا لا أعرف عن الرقص الشرقى قليلاً ولا كثيراً ! فقالت :

— « وهل لك معرفة بالرقص أيها السيد ! »

فقلت :

— لى به معرفة كبيرة يا .. ما اسمك من فضلك ؟

— إسمى ؟ ... إسمى ... إفرض أنه سَنِيَّه !

— ولماذا أفرض ؟ ما اسمك الحقيقى ؟

— قبل أن أجيبك أرجو أن أعرف ما أنت ومن أنت ؟

— ولماذا تريدين ؟

— لأنى أراك فجا فى غشيان هذه الأماكن ، وأنا . . .

— تريدين أن تقولى إننى لا خبرة لى بها ؟

— أجل ... أردت أن أقول ذلك ...

— وأنت ماذا يعنيك من هذا كله ... ألست ترين فىّ صَيْداً طيباً ؟

— أما الصيد فليس أيسر علىّ من إيقاعه هنا ، لكنى أحسست فيك شيئاً فأردت أن أعرف هل تصدق فراستى ؟

— وماذا أحسست يا ... سنية ؟

— لن أقول لك حتى تخبرنى من أنت وما أنت ، ولم قدمت إلى هنا ؟ ...

— أما من أنا ، فأنا ... أنا ... رؤوف ! هل يعجبك هذا الاسم ؟

— إسم جميل إذا كان لك حقاً .. وما عملك ؟

— عملى ... أنا أصور وأصنع التماثيل ... !

— آه ! إذن أنت صادق ! إن اسمك رؤوف حقاً !

— وما ذاك جعلت فداك ؟

— لقد كلمتنى عنك حورية !

— حورية ؟ ...

— أجل . . . حورية . . . حبيبتك ... أحقاً صنعت لها تمثالا ؟

— يا ربى !

— ولماذا هجرت حورية يا رؤوف ؟

— بل هى التى هجرتنى ! لقد هربت منى ! لقد تبعتها ! لقد سقطت !

— سقطت !

— نعم ... سقطت إلى الحضيض ! إنها الآن تبيع جسمها لكل راغب فيه !

— أنت قاس جداً يا رؤوف . . . إن حورية لم تسقط !

— وكيف ؟ لقد شهدتها بعيني لا ترد كف لامس !

— وإذا كنت تكره الساقطات فلماذا قدمت إلى هنا ؟

— حضرت لأتسلى ! وهذا هو الدواء بالتى كانت هى الداء !

— ولهذا جلست إلى !

— أعتذر ! ... إنى أعتذر يا سنية !

— أنت تعتذر ؟ وكيف تعتذر لامرأة ساقطة ؟

— سنية ؟

— ماذا يارؤوف ؟ هل علمتك حورية مواقف الدرام والغرام ؟ لقد كانت معلمة ماهرة ؟! ماذا تريد أن تقول ؟!

— إنى أحس فى صوتك طهراً وفى عينيك براءة!

— أنت تصب فى أذنى ما صبته حورية فى أذنيك ! لقد كانت تجيد هذا الكلام إجادة عجيبة ! أى طهر وأى براءة يارؤوف ؟! إنى أبيع نفسى لكل راغب كل يوم مرة أو مرتين ؟! طهر وبراءة ! هذا عجيب !

— وبالرغم من هذا فأنا لا أشك فى طهرك وبراءتك ! أين تسكنين يا سنية ؟

— أسكن فى حى قذر موبوء !

— أريد أن أزورك ثمة ، فهل تأذنين ؟

— إنى أخشى عليك أن تتنجس !

— أنا لا أبالى ... أرجوك ... لنذهب الآن !

وركبنا عربة ظلت تجوب شوارع القاهرة وقد نام ليلها الساهر ، ووقفت حركتها الدائبة ... ثم انتهينا إلى عطفة ضيقة مرطوبة ... ووقفت العربة أمام بيت عتيق متهدم ...

— هنا ياسيدى

— هذا بيتكم ؟!

— أجل ... هنا ... وأرجو ألا تحدث صوتا ونحن صاعدان ، فسترى كم من البغايا وربات الفجور يسكن معى فى هذا المنزل القذر ! كم الساعة الآن ؟ !

— الساعة ... الدنيا ظلام ... لنعد إلى العربة ... الساعة ... الثالثة صباحاً ... بل الثالثة والنصف ! لقد أذن الفجر !

— إذن لنصعد الآن !

وصعدت فى إثرها يا طارق ... ووقفت فى الظلام لحظة ، ثم نظرت إلى باب الغرفة ، فوجدت بصيصاً مريضاً من النور ينبعث خلال ثقب المفتاح ... وبعد أن نظرت سنية فيه رجعت قليلا وقالت لى ... « أنظر إذن ! »

ونظرت !

يالله ! شيخ عجوز هرم يتهالك على نفسه ، وقد استقبل القبلة ، وبسط كفيه إلى الله ، وراح يقول : « الله أكبر ! »

الله أكبر يا طارق ! الله أكبر يا صديقى ! الرجل يصلى الصبح يا أخى ؟ فياترى ، هل يعلم من أين أقبلت سنية ؟ لقد عرفت أنه أبوها ... يالمفارقات الحياة ، ويالهول المتناقضات فيها !

ثم استيقظ طفلان صغيران وجعلا يتضاغان من شدة الجوع ، وأخذا يبكيان ، فقال لهما العجوز الشيخ : « لا . لا ... حالا ستأتي نفوسة بالطعام لكما ! صبرا ... صبرا ... حالا حالا ... يارب ! لطفك اللهم يارب ! ... » ورفع الرجل كمه وطفق يخفى فى طرفه دموعه

ولـكن ! ... يا ترى من تكون نفوسة ؟

— من تكون نفوسة يا سنية ؟

— نفوسة ؟ ... أنا ! أنا نفوسة !

— ولماذا قلت إنك تسمين سنية ؟

— لأنهم أرادوا ذلك !

— من هم ؟

— أصحاب المرقص !

— ولماذا ؟

— لأن اسم نفوسة اسم (بلدى) فى رأيهم ، ولا يصلح للاعلانات !

— آه ، فهمت ! ومن أولئك ؟

— الشيخ أبى وهذان طفلاى !

— فهو جدهما إذن ؟

— ... ؟ ...

— وأمك ؟

— ماتت !

— وزوجك ؟

— أدمن السموم حتى مات . . . وقد مات فى السجن !

— ولم يترك لـكم ما تقتاتون به ؟ !

— ولماذا لجأت إلى المراقص إذن ؟

— ولم تجدى عملا أشرف من هذا العمل ؟

— كان يجب أن ننتظر طويلا حتى نموت من الجوع لأجد هذا العمل الشريف ؟

— وأبوك يعلم ذلك !

— يعلم ماذا ؟

— أنك راقصة ، وتتجرين بعرضك ؟

— لو علم لقتلنى وقتل نفسه !

— كنت أفضل أن تدرسا أمر عيشكما قبل أن تقدمى على هذه المهنة !

— لو درسنا ذلك لاقترح على الشحاذة !

— أى أن تكونوا أبناء سبيل ؟

— أجل ... هو ذاك

— ولـكنى الحرة تموت ولا تأكل بثديها

— ما لم يكن لها طفلان ضعيفان عاجزان كهذين

— نفوسة

— ماذا يا رؤوف ؟

— ألم أقل لك إنى ألمح فى صوتك الطهر وفى عينيك البراءة ؟

— أنت أول من لمح هذا لأنك فنان

— نفوسة أتقبلينى زوجاً ؟

— لا . . . ان يكون ذلك

— ولماذا يا أختاه ؟ !

— لأنك تعرض هذا وأنت فى غمر من عاطفتك البريئة ، فاذا جد الجد ، وهفوت ولو هفوة يسيرة ... صحت فى بأعلى صوتك قائلاً : يا عاهرة ! إذهبى ... عودى إلى منبتك الوخيم القذر ... لقد أنقذتك وكفرت بأنعمى ! ... لقد ...

ثم ارتفع صوتها يا طارق ، فانفتح باب الغرفة ، وبرزت رأس الشيخ ، وتلألأت فى الظلام لحيته التى أثارها الشيب

— من ؟ ! نفوسة ؟ ! لماذا أقبلت قبل ميعادك يا بنيتى ؟ لماذا تصيحين وتصخبين ؟ !

ووضع الرجل كفه فوق عينيه ، يتبينى ، وفى كفه الأخرى مصباحه الضعيف الخافت . . . أنظر . . .

واستدار رؤوف ، ثم أومأ إلى تمثال للشيخ وقد بسط كفيه إلى السماء وهو يقول : « الله

أكبر ! ! » ثم استدار مرة ثانية وأشار إلى تمثال آخر للشيخ نفسه وقد رفع كفه إلى جبينه وهو يحملق ، وفى كفه الأخرى مصباحه الضعيف الخافت ! !

أرأيت ياطارق ؟ ! أهذا كله للفن من أجل الفن ؟ أم للفن من أجل الحياة ؟ ورآنى الرجل فصرخ صرخة عظيمة ... لأنه أيقن أننى عاشق من عشاق ابنته ، وربما أكد له ذلك ما تشمم من عبير البنفسج الذى كان ينتشر منها فى ظلام بيته ، ومن هذه الأصباغ التى كانت تترا كم صارخة فوق خديها وشفتيها .

— ما هذا يا نفوسة ؟ ما هذا الذين تصنعينه بنفسك ؟ ومن هذا الذى معك ؟ ألم تقولى لى إنك تذهبين إلى مصنع ... لتعملى فيه ليلا ؟ ! من أين لك هذه الملابس وهذا العطر وهذه الأصباغ ... وى ... يارب ! ... يارب ! ...

وسقط الرجل فوق الدرج سقطة هائلة ... وما هى إلا لحظة حتى أسلم آخر أنفاسه

ألا ليته مات وهو قائم يصلى ! ! ألا ليته ماعلم سر ابنته ! !

وانحنت نفوسة فوقه تبلل لحيته ووجهه بدموعها ، فى حين أقبل طفلاها يصيحان من ألم الجوع ويقولان : « أمى ... أمى ... نفوسة ! هل أحضرت الخبز ؟ »

وسرت رعشة فى أعصابى فأثلجتها ... ولم أتمالك أن بكيت ! !

وأخلصت لى نفوسة وأخلصت لها ..

فانظر إلى هذا الحب الذي ينمو من رفات الموتى ! لقد كانت جميلة ... كانت جميلة جداً ، وكان حزنها يضاعف جمالها ... لقد أشرقت فى حياتى كما يشرق النجم الجميل فى غيهب الليل ، أو كما تشرق بارقة الأمل فى غياهب اليأس . أنظر إلى صورتها هذه ياطارق ! أترى إلى الهدبين كيف تنتشر منهما ظلال الرحمة لا سهام العذاب كما يقول شعراؤنا ؟ أنظر إلى هذا الفم الحلو المختوم ! ألا يكلمك حديثا مشجيا تفهمه ولاتسمعه . وهذا الخد ! هذا الخد ! أنظر إلى قسمته ! ألا ترى فى صفحته آثار قبلى ! ما أعجزنا نحن الفنانين ! لشد ما عيت أن أنقل جمالها إلى هذا المرمر ! أين أنت يانفوسة البيت العتيق ، وسنية المرقص الوخيم ! سلام عليك أيها الشيخ . سلام عليك فى عليين !

— وأين ذهبت صاحبتك هذه يارؤوف ؟

— جاءت حورية ... حورية الشيطانة ! فسرقتها منى ! سرقتها بعد أن طهر الموت نفسها ، ووضع فى النار عارها ، ولست أدرى اليوم أنى مضت ، وأيان مستقرها ...

— ألم تبحث عنها ؟

— لم أترك مباءة ولا حانة ولا داراً للهو إلا غشيتها ، لكنى لم أقف لها على أثر . ولم أسمع عنها من أحد !

— وابناها ! ؟

— ذهبا معها . فلله هما ، لقد كنت اتخذتهما لى ولدين !

* * *

وظلا يتنقلان بين التماثيل ، ورؤوف يقص وقائع غرامه عند كل تمثال ، ثم يردف كل قصة بعرض ضوء يزيد فى بهاء تماثيله وسحر صوره الملقة فوق الجدران ، أو الملقاة على أرض القبو ... وقد

يذرف عبرة أو عبرتين عند كل منهـا ، إذا هاجه الوجد أو عصف بقلبه الاذكار ...

ثم انتهيا عنـد باب قبو آخر مقفل ، فوقف رؤوف تلقاءه صامتا دامع العين ... ودفع الفضول طارقا فسأله :

— وماذا هنا أيضا يارؤوف ؟

— لا . لن أقص عليك قصتى هـذه ، فهى كتابى الذى أقسمت ألا أفتحه . ومن يدرى؟ فقد أموت ، وبعدها تأتى ياطارق إلى هنا ، وتكتب ما قصصت عليك ... ثم تكتب مالم أقصص عليك من أمر هذه القصة الراقدة هنا ... يالمأساة !

— يبدولى أن طوفاناً من العواطف يجتاحك يارؤوف ، وهذا حال الشاعر وليس حال الفنان .. إهدأ ياصديقى ... وتجلد ... وعد إلى مرح الحياة فقد ضربت أنت أمثالها .. تنقل كما كنت تفعل .. وافتح هذا الباب الرهيب ، ولا تحمل من أسرارك وزراً يقصم ظهرك ... أليست هى الأخرى قصة حب أو مأساة غرام ؟ ماذا تخشى ؟

— أجل، هي مأساة غرام ، ولكنها من نوع آخر ... لقد رأيت كيف كنت أنتقى حبيباتى من بنات الفن ، لأنى كنت أحسبهن أقرب إلى فهم حياة الفنان ... ولكنك رأيت كيف كفرن جميعاً بحبى ، فجرحن كبريائى ، ولم يكافئنى ... بل هربن منى ، برغم ما كنت أحوطهن به من عناية وافتداء ومحبة ... ولكن ما بال هذه الثاوية هنا ؟ ! لقـد شهدتها أول ماشهدتها فى حديقة الأندلس الناضرة. ولقد قرأت فى عينيها النبل ، وفوق جبينها العظمة والكبرياء ، وعرفت أنها من عائلة من أعرق العائلات فتقدمت إلى أهلها خاطباً على الطريقة المصرية ... هذه الطريقة التى كلها توكل واستسلام ... وقد رضيت بى بعلاً ... وزفت إلى على الطريقة المصرية أيضاً ... لقد كنت هذه المرة ثائراً على جبلتى ، نازلاً عند جبلة قومى ، وكنت أحسب أن علة شقائى فى مشاهد غرامى هى ثورتى على طباع قومى وعاداتهم ... فقلت أنسي أننى فنان ... وأخطب على الطريقـة المصرية ... وتزف إلى عروسى التى لم أرها غير مرة ... وليقض الله أمره فى فؤادى !

على أن التجربة قد نفعت ... وكانت زوجة صالحة ... ولكن ، وا أسفاه ! إن صلاحها لم يدم طويلاً ...

أسبوع واحد من شهر العسل يا طارق ؛ ثم أخذت حواء تتنمر لآدم ! كنت أعمل مجداً فى تمثالها المسجون هنا ... فإذا بها تقبل مغاضبة ، وقد انتقدت فى وجهها نيران الجحيم كلها ... قالت لى ؛ وقلت لها :

— رؤوف !

— سيدتى !

— أنا لا أصلح لك ، وأنت لا تصلح لى !

— أستغفر الله ! لـماذا ؟

— أنت تعلم لماذا ، ولا حاجة بنا إلى النقاش ، فرجائى أن ترسلنى !

— أما أني أعلم فأنا لا علم لى ، أؤكد لك ... وأما أن أرسلك فهذه تكون أشد كارثة تحل بى

— فنان ! ماشاء الله ! فنان عزل تهب قلبك لـكل من تلقى ! يا تلميذ إبليس ! كلما فكرت فى تمثال أو صورة عبدت غانية ومرغت تحت قدميها خدك ! حياة كلها أوزار وفسوق ! ألف حبيبة وألف قينة ! لقد انخدعنا فيك ... ولكن ...

— أوه ! ما هذا كله ؟ ماذا دهاك منى ؟

— ماذا دهانى منك ! خذ واقرأ ... وأرجو ألا تنكر خطك !

— آه ! حورية ! دائماً حورية ! إنها ترسب فى حياتى كلها وتطفو ! هكذا دائماً ، هى تلعب دورها بمهارة ، ولكن بقسوة !

— أجل هى حورية ... حورية التى تهبها أحلامك وآمالك ، وتنظم فيها درر فنك !

— أيتها السيدة ... أرجوك !

— ترجونى ؟

— أجل، أرجوك ! إن هذا الخطاب قديم .. قبل أن أعرفك بعشر سنوات !

— والدليل على ذلك هذا التمثال الذى تصنعه !

— التمثال الذى أصنعه ؟ إنه لك يا عائدة !

— ها ها ... ها ها ها ... جميل جداً ... يبدو لى أنك مجنون ! أنظر يا أبله إلى تمثالك فلن تستطيع أن تخدعنى !

ونظرت إلى التمثال يا طارق !

يا للحلم ! صحيح إنه تمثال حورية ! تمثال حورية بعد عشر سنوات ، ولى مع ذلك زوجة صالحة جميلة كنت أرجو أن تنتشلنى من دنيا الفن إلى عالم الحقيقة ... كنت أرجو أن تكون أم البنين !

وتناولت الخطاب القديم أقرؤه ... وبرغم الموقف الهائل الذى كنت أقفه حيال زوجتى ... كنت أرقص طربا لكل فقرة من فقرات الخطاب أسلوب لا عهد لى به ! حب متقد ! أزهار منثورة بين ثنايا السطور ! دموع ما تزال حارة تغلى ! قلب أضناه الغرام وشفه الوجد أو كاد، أرفع يدى إلى صدرى أتحسسه ! آهات وزفرات ! شاطىء البحر الأبيض وبدره الساجى ونسيمه البليل ! الصخرة ! حرارة القبل !...

كل هذا لمسته فى سطور الكتاب لمسا ياطارق ... ومع ذاك ... فما هى ذى زوجتى تشهد هذه الثورة الجامحة فى أعماقى ، تبدو على وجهى ولا تستتر ...

قالت عائدة :

— رؤوف ... إذن ، أنا ذاهبة ! الوداع ! إنى أسامحك وأصفح عنك !

ولم أرد بكلمة ياطارق ... فقد حيرنى الخطاب الذى لم أشك مطلقا بعد أن ذهبت عائدة ، أننى كتبته أمس ! ومداده الجديد يشهد بذلك ؟

* * *

— والآن يا صديقى ، الفن للفن ، أم الفن للحياة ؟

— بل الفن للحياة برغم مآسيك كلها .. فلولا حياتك المفعمة المترعة ما حظى الفن بهذه الآيات الرائعات .. أنظر إلى هذا المتحف الكئيب ، وقارن بينه وبين القبو

هنا جمارين وأفاع وطيور وظباء قليلة ، وصور خافتة للصحراء ... لوادى الموت ...

أما هناك ! ... فيا لله ؟

حورية . سنية . كوكب . سناء . الشيخ يجار « الله أكبر . » حديقة الأندلس . جنة الأزهار . طاقة البنفسج . باقة الكميليا .

— ومع ذاك . فسأحيا للفن

— وللحياة .

— كلا ... لقد ودعت حياتى منذ ودعت غرامى الأول .

وحنى رؤوف رأسه فذرف دمعة على ذكريات حورية .

دريني خشبة

(الرواية) القصة مؤلفة للسينما والنقل والاقتباس ممنوعان

من قتل أباه ؟

للكاتب الانجليزي سير آرثر كونان دويل

بقلم الأستاذ محمد لطفي جمعه

حدث الدكتور وطسون قال :

كنت جالساً في مسكن شرلوك هولز رقم ٤٠ شارع بيكر ستريت في يوم عبوس ممطور ، شديد البرد ؛ ولكن مظاهر الترف والرفاهية التي كانت تحفني أنستني العواصف المهولة التي كانت تهز الأشجار وتحطم زجاج النوافذ وتغرق السفائن في البحر

فدخلت مسز تيرنر مدبرة الدار وهي تحمل صينية من الأبنوس المطعم بالعاج وعليها طعام الافطار وقالت لي في سخط وغضب :

— أما آن لهذا المسكين أن يتناول وجبة الصباح ؟ لقد طرقت بابه فلم يجب فلما فتحت الباب كعادتي وجدته مستلقياً على ظهره ووجهه شاحب كأنه صريع الأفيون ، وقد امتلأ جو الغرفة بدخان تلك البيبة الأبدية التي يتنفس خلالها النيكوتين ..

فقلت لها : وهل مستر هولز نائم ؟

قالت : أبداً ! إن عينيه شاخصتان ، كأنه ينظر إلى شيء في الفضاء يراه وحده

فقلت لها : هذه عادته فلا تبتئسي

فقالت : ولكنك طبيب ، وإني أخشى أن يكون بالرجل مسٌّ من الجن ، أو أنه يعاني مرضاً دفيناً يقضي عليه فجأة ، فانه لم ينم منذ ليلتين ، ولم يخلع ثيابه وما بدّل من مظهره سوى حذائه الذي استبدله بمداذه

فنهضت وصحبتها إلى غرفة شرلوك هولز فرأيته على الحالة التي وصفتها العجوز ؛ وزاد عليها أنه لم يرد تحيتي ، فلما دنوت منه وقلت له : هذا هو طعام الافطار يا مستر هولز ، إنك بعد كل هذا رجل ، أي كائن حي تحتاج الطعام والشراب ولست ملكا ولا جنياً .

فسمعته يهمس : روتشديل ... كليمنس .. تسعة أقدام وسبعة .. بعد ثلاثة أيام ... دائرة ضيقة

فضحكت ضحكة عالية ؛ لأنني أدركت أنه منشغل بحل تلك الجريمة الخارقة للعادة

فكان لقهقهتي أثر غير منتظر ، فقد أفاق هولز من ذهوله وقال :

— ها أنت ذا يا وطسن . متى جئت ؟ وأين تلك العجوز الشمطاء تيرنر التي لم تفكر في إعداد إفطاري حتى هذه الساعة المتأخرة من النهار . فضحكت وقلت له : اخفض صوتك فان هذه التي تدعوها « شمطاء » وتتهمها بالتقصير قد حملت إليك الشاي والحلوى منذ ساعة وهي بالباب تناديك فلا تجيب

ودعوت مسز تيرنر فلبت واستأذنت . ووضعت خوان الافطار على المنضدة التي تكدست عليها الكتب والخرائط والقواميس والرسوم بحالة مزعجة . وأخذت مقعدي حيال هولز لمؤانسته أثناء شرب الشاي

ولم يكد المسكين يمد يده إلى أحد الأقداح حتى عادت مسز تيرنر مهرولة وقالت :

— إن سيداً شاباً بالباب يريد لقاءك وقد بلله المطر ونال منه التعب نيلاً شديداً

فقال هولز دعيه يدخل وأعدي له الشاي

وفي تلك اللحظة دخل علينا شاب في منتصف العقد الثالث ، أصفر الوجه ، عصبي المزاج نحيلاً في عينيه جمال وهدوء ، وفي سمته وقار وثبات ، وفي يده كتاب تبينت بعد لحظة أنه الانجيل المقدس . فاتجه الفتى نحوي وقال لي : هل أنت مستر هولز ؟

فقال هولمز : نعم . إنه هو بعينه ، ولكنه قليل الكلام فقل وأوجز

فاتجه الشاب المسكين نحوى وقال لهولمز : لقد وددت لو ألقاه وحده . فيا حبذاً ياسيدى لو تركتنا قليلاً حتى أفضى إليه بسر حضورى . فضحك هولمز وقال : لا ! لا ! لا يمكننى أن أتركه ، لأننى كاتم أسراره ويده اليمنى . فخشيت أن أظهر الشاب على الحقيقة ، فيسوؤه مزاح هولمز فى ضيقه

وكان هولمز ناجحاً أحياناً لهذه الطريقة عندما يكون متعباً أوعندما يرى أمامه شخصاً خائر القوة، فيجب أن يتجه المحدث إلىّ ليدرسه على غرة منه

فلم أفعل أكثر من أن هززت رأسى وأشرت إشارة الرضى والموافقة

فقال لى الشاب : إذن أتكلم ؟ إن مستسرك هذا لا يبعث بالثقة التى توحيها

فضحكت ولزمت صمتى ، ولكن وجه هولمز لم يبد عليه أقل انفعال أو دهشة

وكانت مسز تيرنر قد أحضرت له الشاى فأخذ جرعة واحدة ثم ألقى بالفدح جانباً وقال :

إننى انجليزى كاثوليكى من مقاطعة « سوث سكس » وعندما كنت طفلا ، كان من عادتى أن أتوجه إلى الاعتراف بين يدى قسيس القصر، نعم قصر أسرتي، فانني أنتمى إلى الأشراف النورمانديين الذين دخلوا هذه البلاد بقيادة غليوم الفاتح .

فقال هولمز وقد اتخذ شخصيتى مؤقتاً :

— إن مستر هولمز لا يهمه كثيراً ذكر الآباء والأجداد وتسلسل الذرارى بقدر ما يهمه أن تدخل فوراً إلى صميم الموضوع

فاحمر وجه الشاب الذى كان شاحباً . ونهض على قدميه ونظر إلىّ وقال :

— إن كاتم أسرارك يهينني . إنني متخرج فى جامعة اكسفورد وجئت لأمر جدى وأحمل بين أحشائى ناراً موقدة . فالأفضل أن تعيده إلى صوابه وترشده إلى احترام الذين يستحقون الاحترام

فقال هولمز : هون عليك ياسيدي النبيل . إن مقاطعتى أياك نوع من مصلحتك . فان وقت مستر هولمز من ذهب ووقتى أنا أيضاً ، وقد تضيع على نفسك بهذه المفاخرة دقيقة قد تفر أثناءها فرصة العمل . فجلس الشاب هادئاً واسترسل قائلا : عند ما كنت طفلا كان من عادتى أن أتوجه إلى الاعتراف . لشد ما وددت أن يرجع ذلك العهد ، عهد الصبي والطفولة فأعود طفلا يتوجه عند المغرب إلى محراب الصلاة الخاص بقصرنا فى تلك القاعة التى هيئت معبداً وجمعت كل ما فى الكنيسة من أسباب الهدوء والبساطة تقوم عليها جدران ناصعة البياض ويرتفع فوقها سقف أزرق اللون تناثرت فيه تصاوير فلكية تمثل الكواكب وقد احتوت عدداً من المقاعد تحمل أسماءنا وأرقام جلوسنا . وكان القسيس الكاثوليكى المحترم هولت يمت إلينا بصلة القرابة ، ولكنه تعلم وتكرس وتناول الأسرار العلوية فى كنيسة نوتردام دي باري . وكنت عند ما يحين دورى للركوع فى ذلك المترف الضيق إلى جانب كرسى الاعتراف الذى يضم بدن القسيس الضئيل من فرط التعبد تتسارع دقات قلبي ويستولى علىّ شعور غامض ، وهذه الاحساسات المختلفة وخجلى من الخطايا التى سأعترف بها ، كانت سبب اضطراب أعصابى عندما تأتى اللحظة الرهيبة وأرى القسيس الذى كان يأكل معنا على خوان واحد ويؤهلنا للايمان يصوب إلىّ نظراته رغم أن وجهه الصغير الشاحب يشع منه نور التقوى .

فتململ هولمز فى مقعده ولكنه لم ينبس ببنت شفة . واستمر الشاب يقول :

يالها من لحظة يعقبها ألم عنيف ، يتلوه شعور بالراحة والحرية المطلقة وإحساس بخفة العبء الذى كنت أحمله . ثم توهب لى صفحة بيضاء علىّ أن أملأها بالاعمال الصالحة .

لقد حيل الآن بينى وبين عقيدتى الدينية التى كانت تشعرنى فى السنين الأولى بأن هناك سلطة عليا فيما وراء الطبيعة، وهى التى تسير كل شيء؛ وبعد ذلك أشعر بالحرية التى جددت شباب نفسى ، لأنى اعترفت بأخطائى وذنوبى وطرحت جانباً تلك الأوزار التى تثقل كاهلنا جميعاً .

فأصغى هولمز إلى هذه النبذة الأخيرة إصغاء تاماً ، وتنهد تنهداً عميقاً وقال :

مرحى مرحى ! الآن دخلنا فى الموضوع ، ولكن السيد النبيل لم يذكر لنا اسمه

فقال الشاب : « أنا اسحق إيزموند أوف كنجهام بليس هو رسام سوت سكس »

فقال هولمز : هَمْ !

قال الشاب : عند ما بلغت العاشرة فى شهر يونيو سنة ١٩٠٧ كنت بعد ظهر أحد الأيام الدافئة جالساً فى حجرة مذاكرتى ، كما هى عادتى بعد حضور الدروس فى مدرسة القصر وتناول الشاي فى الساعة الخامسة . وكم من مرة زلت قدمى على الدرجات الثلاث المفروشة بالنقان وهى الموصلة إلى غرفتى الصغيرة المؤثثة على نسق أنيق وكل ما فيها أزرق اللون ؛ وبين جدران هذه الحجرة أمضيت آخر الأيام السعيدة فى حياتى . إنى لأستعيد الآن كل شيء . كنت جالساً إلى مكتبي مرتدياً معطفاً أسود ومشغولا بحل مسألة حسابية على ورقة مسطرة

وعلى حين غرة سمعت صيحات عالية أعقبتها أصوات ممتزجة فاندفعت إلى الباب لأستطلع الخبر؛ فلما رآنى الخادم وهو ممتقع اللون صاح مذهولا :

آه يا سيدى اسحق ! يالله من سوء حظ مروع وحادث فاجع

وعند ما ثاب إلي رشده قال :

— عد إلى حجرتك فوراً ولا تبق هنا

فلما رأى ترددى أخذ بيدى عنوة وأدخلنى فى حجرتى رغم احتجاجى والحاحى عليه لأعرف سبب ذلك الاضطراب الشامل الذى احتوى الدار فجأة ، إلا أننى استطعت أن أفهم أخيراً أن والدى كان قد غادر القصر منذ يومين ولم يعد ، فأقلقت هذه الغيبة الطويلة بال والدتى فبعثت بخطاب إلى صديق الأسرة سير ويتنجهام خطاباً ليحضر . فجاء إلينا بعد العشاء فأفضتي والدتى . ولكنى كنت قد لاحظت بريقاً غير عادى يشع من عينى سير ويتنجهام الزرقاوين اللتين تعودنا منهما مظهر الجمود من وجهه الحاد التقاطيم

فقاطعه هولمز سائلا : صف لى صورة جناب السير فى تلك الحقبة من الزمن التى مضى عليها على الأقل خمس وعشرون سنة

فقال اسحق أزموند :

كان رجلا مديد القامة حليق اللحية كستنائى الشعر وقد احتفظ بشعيرات باهتة اللون تركها تنمو فى مقدمة ذقنه

فقال هولمز : هَمْ ! واسترسل الشاب :

وحينما حاولت التوسل للبقاء مع والدتي وسير ويتنجهام لمحت حركة آلية بعصا خفيفة يداعب بها ظهره . ولطالما أعجبت بتلك العصا وبتمثال المقاتلين الذى يزين رأسها . وكانت حركته لا تدل على الاضطراب؛ ولكن كيف لا يضطرب سير ويتنجهام لاختفاء أعز صديق لديه ؟ بل على العكس ، من ذلك كان صوته غاية فى الهدوء فأسبغ على عباراته لوناً من الموسيقى العذبة حينما وعد بأن يقوم بكل البحوث المحكمة الممكنة ليهتدى إلى مقر والدى وعلة اختفائه . لطالما تذكرت والدتى تمر بخصيلتى بشعرها

الناعم وعينيها الدعجاوين وشفتيها المرتجفتين ، لقد كانت تحاكي في بياضها لون ردائها في ذلك المساء. وكان سير وينتجهام كعادته متأنقاً في ملبسه؛ وإني لأتذكر جيداً وجهه الرشيق

مضيت في سبيلي مقتنعاً بما قاله ذلك الرجل فقد كانت له عندي منزلة كبيرة من أعزاز الطفولة . ولم يكن يعاملني قط إلا بالعطف ، ولكنني أخيراً عرفت الحقيقة القاسية فقد ظللت أطرق الباب بعد أن احتجزني الخادم في غرفتي بعنف وشدة منادياً بأعلى صوتي دون أن أظفر بجواب إلى أن جاءت مربيتي جوليا فصحت قائلا :

— أبي ؟ أين أبي !

فقالت المربية : مسكين أيها الطفل مسكين !

ثم احتضنتني . كانت متوفدة لتنبئني بالحقيقة المروعة . ولكن قواها خانتها . ففررت من بين ذراعيها ، وعدوت في طرق القصر وممراته حتى بلغت حجرة رقاد أبي ، ودخلت إليها قبل أن يتمكن أي إنسان من اعتراضي . آه . قد علا السرير جسم متصلب ، وطرحت فوقه ملاءة بيضاء ووضعت تحت رأسه الساكن وسادة من الصوف ، وزال عنه لون الدم والحياة . وبقيت عيناه مفتوحتين ثابتتين . لأن جفونه لم تجد من يغمضها في الوقت المناسب

وكانت ذقنه معصوبة بضماد ، وقد لفت حول رأسه قطعة من القماش الأبيض . وبجوار السرير جثت امرأة لا تزال بثوبها الأبيض الصيفي ، وهي حزينة تنتحب ... هذان أبي وأمي !

ألقيت بنفسي عليها وقد تولاني حزن جنوني فتلقتني باشفاق وصاحت قائلة :

— إسحق ! إسحق ! يا ولدي

في تلك الصيحة تجلى حزن عميق ، وفي تلك الضمة شعرت بقلبها الملىء بالألم يدفىء فؤادي . وبعد برهة قامت وحملتني إلى خارج الغرفة حتى لا أرى ذلك المنظر البشع مرة أخرى . واستمرت تقول : « ليعاقبني الله . ليعاقبني ربي ! » . دون أن تدرك أثر كلماتها في نفسي ثم غمرتني بالقبلات ، وبللتني بدموعها في وجهي وعنق ورأسي

عندما طلبت إلى والدتي أن تقول لي كل ما تعلم عن ذلك الحادث الفظيع ، أخبرتني بأن أبي قضي على أثر نوبة قلبية في إحدى مركبات السفر . فظل مجهولاً مدة يومين، لأنه لم يكن مايدل على شخصيته

فسأله هولمز ... وهل صدقت ما قيل لك ؟

قال إسحق أزموند ... رغم حداثتي استغرقت طويلا في التفكير فيما قيل لي ، فلو أن أبي مات بتلك الحالة التي بلغتني ، فلماذا سألني الخادم عند ما خرج بي للنزهة عما قيل لي بشأنها ؟ فلما أجبته لزم الصمت ، وعهدي به ثرثارا كبيرا . وما الداعي لهذا الصمت المبهم الذي أشعر به حولي في كل مكان. في الهواء ونحيما على كل الشفاه، ومختفياً وراء كل نظرة

وحدث بعد مرور ثلاثة أشهر أن جاء إلى القصر طفلان في صحبة أمهما ، وهي صديقة صميمة لوالدتي . فاقترب مني أحدهما بعد لعبة الجولف واستجمع شجاعته ثم سألني :

— هل ألقي القبض على قاتل والدك ؟

وقبل أن أفيق من صدمة السؤال قال لي :

— وهل سيعد موته على المشنقة بعد محاكمته في أول بيلي ؟

فاندفع الدم إلى وجهي وقلت : لا أعرف !

حدث ذلك منذ خمس عشرة سنة ، ولكني أشعر الآن بضربات قلبي عندما سمعت هذه الكلمات

فقال هولمز وهو يمثل شخصي :

— ولكن أيها السيد النبيل ، لعل مستر هولمز (مشيراً إلى) يسألك ما الفائدة من تشريفه بزيارتك وقد مضى على مصرع المرحوم والدك كل تلك المدة الطويلة؟ فاحمر وجه الشاب وقال :

— إن قاتل أبي لم يعرف. وسأشرح لكما سبب هذه الزيارة التي قد تكون حبلى بالفوائد لي ولمستر هولمز. فقد اطلعت أمي على ما سمعته ، ولكني لم أفز منها بطائل . فقصدت إلى خادمنا العجوز مس جوليا . فلم تجد بداً من أن تطلعني على الحقيقة. فقالت لي إن والدي مات قتيلا، وإن الذي قتله رجل يدعى روتشديل اتصل به قبل مصرعه ببضعة أسابيع وزعم أنه وكيل إحدى الشركات التجارية في الهند . وقد جاء إلى انجلترا لمفاوضة والدي في بعض أعمال تهمه . ثم دعاه إلى فندق والدورف وهو الذي كان الرجل روتشيلد نزيلا به، وهناك وقعت الجناية واختفى روتشلد اختفاء غريباً ولم يعثر له على أثر .

فلما سمع مستر هولمز اسم روتشديل قفز من مقعده ولمعت عيناه ، وأخذ يسير في الغرفة ذهابا وجيئة كمن مسته الشياطين .

وتذكرت فجأة الاسم الذي كان يهتف به قبل مقدم اسحق ازموند الذي انزعج لرؤية هولمز في هياجه والتفت إلى وهمس في أذني : إن كاتم أسرارك رجل غريب الأطوار ويجب أن تستبدل غيره به .

فأجابه هولمز من آخر الغرفة :

— هدىء روعك أيها السيد النبيل فان مستر هولمز سيعزلني بمجرد الانتهاء من كشف القناع عن مقتل المرحوم والدك فارتبك اسحق عند ما علم أن هولمز سمع همسه . واستمر هولمز قائلا :

— ولكن قبل أن نبت في هذه المسألة أجبني على سؤالي؟ هل تزوجت والدتك من سيروتينجهام صديق الأسرة الذي وصفته لنا ؟

قال اسحق وهو بين الذعر والدهشة :

— نعم ، من ذا الذي أخبرك ؟

قال هولمز : وكان هذا الزواج في تمام العامين من مصرع أبيك ؟

فقفز اسحق من مقعده وقال :

— نعم ياسيدي . إنك منجم حاذق

وقبل أن يفيق اسحق من دهشته قال له هولمز

— لقد عجز المحققون، لأن القاتل لم يسلب والدك نقوداً ولم يكن لأبيك أعداء في الهند ولا في سواها .

فقال اسحق نعم نعم ياسيدي السكرتير أظن اسمك دكتور وطسن

فقال هولمز — إن الأسماء لا تهم بقدر ما يهمنا الوقوف على الحقيقة .

فقال اسحق — نعم ياسيدي وكان هذا الزواج الحادث الثاني في حياتي .

فقال هولمز — بقي عليك أن تقص علينا مسلك زوج أمك بعد أن عقد عليها .

فقال إسحق : اسمح لي أن أشرب قليلا من الشاي ، فاني لم أتذوق شيئاً منذ ثلاثة أيام

فابتسم هولمز وأمر له بفداء كامل وقال له : وقد حضرت من بورنموث حيث تقيم بمفردك إلى هنا في مركبة (دوجكارت) يجرها جواد واحد

فضحك إسحق وقال : نعم وقد تركته باصطبل فولكنر وجئت سائراً على قدمي حتى بللني المطر . يا ليتني عرفتكما منذ خمس سنين بعد بلوغ رشدي..

فقال هولمز : إن الوقت لحسن الحظ لم يفت

قال إسحق : أحسست بكراهة غريبة مبهمة لا أستطيع تفسيرها نحو سيروتينجهام زوج والدتي؛ وكنت أتجنب لقاءه بسبب الجفاء الذي كان يقع بيننا عند ما تتلاقى أبصارنا... بيد أنه كان بجميع تصرفه يستدر عطفي ويستدرج ولائي . وكان جميع أمره ينم عن رقة ودماثة أخلاق تخفي وراءها دهاء عميقاً وحذراً يقظاً . إذ أنه لما بلغت مبلغ الرجال أبى أن ينقص شيئاً من إرادي الخاص ، مما أنفق في تعليمي في إيتون وأكسفورد . وانفق ووالدتي على تقديم ثروتي وافر دخلها إلى منذ وفاة أبي كاملة لم تمس . فوجدت بين يدي في سن الشباب أموالا طائلة

ولكن هذه الأموال لم تغرني بشيء مما يغرى الشباب ، إذ كانت رغبة الثأر والانتقام لوالدى تتأجج فى صدرى كالنار المشتعلة . وكان كل همي موجها إلى معرفة القاتل . وهل هو على قيد الحياة؟ وما سبب جنايته على والدى المسكين ... ؟ ولكن كل ما انتهى إليه استقصائى كان أن والدى قد قتل غدراً بيد ذلك الرجل الذى يدعى روتشديل ، وإنه لا بد أن يكون انجليزياً أو أمريكياً كما شهد مدير الفندق وسائر خدمه . فاتصلت برجال سكوتلانديارد وبمستر مارشال هول ، وهو المحامى الذى تولى الدفاع عن حقوق ، وبلورد بروكلاند قاضى التحقيق الأول فأطلعنى على ملف الدعوى ولم يكن فيه أكثر مما عرفت . وأرشدني إليك قائلا :

— إن مستر هولمز محقق جنائى هاو ولكنه أحذق من فحص قضية . فلما فاتحت مستر بارمور رئيس شرطة سكوتلانديارد أحبط عزمى زاعماً أن مستر هولمز فيلسوف نادر المثال ، له شطحات تقصيه عن المرمى وإن كان يصيب الأهداف أحياناً . ولكنها ليست القاعدة . وقال: « خصوصاً وإن حدة الجريمة أخذت تخف وتبرد فى الصحف والمنتديات ، وإن مستر هولمز لا يصلح للضرب على الحديد البارد » . ففترت همتى عن الحضور إليك . ولكنني الآن أعض بنان الندم ... ساءلت نفسى : أيمكن أن يضيع دم أبى هدراً ..؟ صار الأخذ بالثار محور حياتى وهدفى المقدس ، ولكن كيف أنتقم ؟ فمدت لا أطيق المقام فى جو يعيش فيه وتنجهام ووالدتي ، فاتخذت مسكناً خاصاً واكتفيت بزيارتهما فلا أزورهما إلا لماما

وفى أحد الأيام ناولنى الخادم برقية ممهورة باسم خادمنا الأمينة جوليا وهى التى تعهدتنى طفلا وسهرت على فتى ويافعاً . قد آثرت أن تعيش بعد وفاة أبي فى كنف عمتى فى الريف . وكانت فحوى هذه الرسالة أن عمتى مريضة جداً . فسافرت تواً إلى قرية كنيلورث ، وكانت جوليا أول من لقيني ، وكانت عمتى نائمة على فراشها ، فلما استيقظت رأتني وكان المرض قد أعجزها عن الكلام . فأشارت بيدها الكليلة إلى صوان إشارة فهمت منها أنها تريد أن أحضر منه صندوقاً فأحضرته وتناولته بيديها المرتجفتين وأخرجت منه حزمة من الرسائل واتجه بصرها نحو المدفأ . ثم اعتدلت فى فراشها بجهد شديد وألقت بحزمة الرسائل لتكون طعمة للنار قبل أن يقرأها إنسان فى العالم . ولكن الرسائل لم تبلغ مدى النار ، فوعدتها أن أقوم باحراقها فاستسلمت للنوم ولم تمض ساعات حتى لفظت آخر أنفاسها

واعتقدت أن تلك الرسائل ربما تلقى شعاعاً هادياً على سر مصرع أبى فلم أنفذ وصية عمتى لأن رغبتى الملحة فى الانتقام كانت أقوى من عاطفة الوفاء لوصية المرأة النبيلة

فقال هولمز : كانت هذه الرسائل بالطبع مؤرخة فى نفس العام الذى قتل فيه أبوك ، وكان اسم وتنجهام يتردد فيها بكثرة ، وكان والدك يصف حالته النفسية إزاء ذلك الرجل ، وإنه يحس بأنه يحب والدتك حباً قوياً ويخفيه بمكره ودهائه ، وإن أمك بادلته الحب فترك والدك مزاحمه على قلب زوجته يغشى القصر وهو يتعذب بعذاب الغيرة القاتلة !

فنهض إسحق أزموند من مقعده وضم مستر هولمز إلى صدره ضما عنيفاً وقال له : أيها الرجل إنك تعرف أكثر مما أعرف فقل لى بربك من قاتل أبى ؟

فابتسم هولمز وقال له : هدئ روعك أيها السيد النبيل . إن الأمر ظاهر كالشمس فلم يكن رجل أفاد من مقتل أبيك سوى سير وتنجهام الذى صار زوجاً لأمك ، ولكن يعوزك الدليل الحاسم

فقال أزموند : ولكن لم يخف هذا الأمر الواضح على هؤلاء البلهاء الرسميين فى سكوتلاند يارد ؟ إلا أن شيئاً هاماً طرأ على الموقف وهو مرض وتينجهام

فى الأيام الأخيرة بنوبات قلبية

وبينما كنت أمس فى زيارة أمى وكان زوجها مريضاً قالت لى والدتى وهى تصحبنى إلى باب القصر إن النوبات التى تصيبه تزداد يوما فيوما وأن سببها أخ شقيق له مغامر فاسد الأخلاق فر من الجندية ثم ادعى أنه انتحر ؛ وساعده على هذه الدعوى سير ويتنجهام نفسه ليزيل عن أسرته هذه الوصمة . واستطاع هذا الرجل الشرير الذى بدد ثروته فى الحانات وبين النوانى أن يسافر إلى أمريكا باسم مستعار ولكنه عاد أخيراً إلى هذه البلاد معدماً وأخذ يتهدد أخاه ويصحب تهديده بطلب المال وإلا قدم نفسه للحكومة مثبتاً أنه لا يزال على قيد الحياة وأن الذى أعانه على الفرار هو شقيقه

فقال هولمز — من الواضح أن هذا الشقيق العابث المستهتر المتردى فى حمأة الرذيلة الذى يتهدد سير ويتنجهام حتى أصبح مصدر رعبه ليس إلا الرجل الذى تسمى باسم روتشديل وأنه قاتل أبيك بنفسه، وأن زوج أمك قد استغل انحطاطه وتدهوره فى تنفيذ جريمة القتل فلم يكن سوى الآلة التى نفذت الجريمة . فبهت اسحق ازموند وقال إذن ... فقاطعه شرلوك هولمز قائلا : هل لديك صورة للمرحوم والدك ؟ فبادر اسحق إلى إخراج غلاف من جيبه كانت فيه صورة أبيه فنظر هولمز إليها ثم إلى وجه محدثنا . وأشار إلى إشارة فهمت منها أنه يتأهب للخروج فى صحبة ازموند

فقلت لازموند : لقد طالت المهزلة . إن محدثك هومستر هولمز نفسه أما أنا فصديقه دكتور وطسن وهو يريد أن يصحبك فضحك هولمز وقال :

— أردت أن تأخذ قسطك من الحرية فى مخاطبتى . وعليك الآن أن تعود إلىّ بعد ساعة مرتديا بثياب تماثل الثياب التى كان بها والدك يوم مقتله

فقال اسحق — لقد أخذت له هذه الصورة يوم مصرعه ولم نحصل عليها من المصور إلا بعد وفاته بشهر وقد علم باسمه من الصحف

فقال هولمز — لقد قدم لك قبل موته وسيلة لاتمام انتقامك، وسوف ترى. وخرج اسحق مهرولاً

وبدأ هولمز عمله فاتصل بالتليفون بالشرطة العامة والخاصة وبنصف فنادق لندن ، إلى أن اهتدى إلى مقر الرجل ؛ وكان الاسم الذي اختاره جون برود كاست وقد أفضت به لادي ويتنجهام نفسها لولدها وهى لا تدرى عاقبة الأمور

فقلت لهولمز — وماذا تريد الآن ؟

قال — أهاجم القاتل فى مكمنه. ولما كان الشبه بين اسحق ازموند ووالده شديداً فان ظهور النجل أمام القاتل فجأة سيلقى الرعب فى نفسه . ثم نناديه بالاسم الذي عرف به إذ ذاك وهو روتشديل . وعندئذ لا يجد مفراً من الاعتراف بسبب هذه المفاجأة

وفى تمام الساعة الثالثة بعد الظهر دخل علينا اسحق وهو فى صورة والده المتوفى منذ خمس عشرة سنة فدهشت، ولكن هولمز هز رأسه قائلا : إن قوانين الوراثة لاتخون ولاتكذب . وقال لاسحق : سأذهب معك فى هيأة تابع لك أحل حقيبتك . وانحدرنا إلى الشارع وركبنا « هانسوم كاب[1] »

وفى طريقنا سأل اسحق :

— هل نقبض عليه اليوم ونسلمه إلى الشرطة ؟

فأجاب هولمز — أبداً. إن تغلبنا عليه سيوصلنا بسهولة إلى شقيقه سير وتنجهام إذ أنه قبيل قتل والدك كان فاراً من الجندية ومقيما بأمريكا وكان فى نظر العالم قد انتحر . فلا بد أن زوج أمك أرسل إليه بعض رسائل خاصة بتدبير الجريمة ليستقدمه إلى انجلترا وهذه الرسائل ذات قيمة عظيمة ، لأنها الحجة الوحيدة التى بيد قاتل أبيك الآن وهي التى يتهدد شقيقه بها لابتزاز ماله . فرغبتى الآن منحصرة

(١) نوع من مركبات الأجرة يكون سائقها خلف الراكب

فى الحصول على تلك الرسائل من شقيق زوج والدتك بأى ثمن . أما القبض عليه فقد انتهيت هذا الصباح من الانصراف عنه لأنه لا يتفق وخطتى، إذ سيضطر المحققين إلى سؤال والدتك وهي فى اعتقادى بريئة من تدبير الجريمة . فتناول اسحق يد هولز وهم بتقبيلها وبكى . فقال له هولز : إننى أفهم عواطفك فأخرج الشاب من جيبه محفظة نقوده وقال له : هذه لك خذها . فرد هولز يده بلطف وقال : آسف ياسيدى إننى لا أتناول أجراً على عملى

وصلنا إلى الفندق وبقيت فى الممر الموصل إلى الغرفة التى بها الرجل الذى نعتقد أنه القاتل واتجهنا صوبها، ولم يكن لحسن الحظ بالبهو أحد. وفتح اسحق الغرفة فجأة وكان بها رجل موليا ظهره للباب ، فلما فتح اتجه نحوه فصاح به اسحق ازموند : روتشديل

فمراه اصفرار مهول وتساقط العرق من جبينه وصاح صيحة مكتومة : ـ ازموند !

وقبل أن يأتى بأية حركة صوب هولز نحوه مسدساً وتهدده بالقتل إذا تحرك . فلم يستطع الانكار طويلاً وقد ظن أولاً أن أخاه قد وشى به ليتخلص منه وقال : ماذا تريد منى ؟

فأجابه هولز : إنى أريد الرسائل وسأعطيك بها ثمناً ضخماً لتهرب . أعطنى الرسائل فقط . فانتهز الرجل فرصة سانحة وقلب المنضدة وانقض على هولز فاشتبكا فى صراع عنيف فانتصر عليه هولز وقد أعجبت بثبات إسحق أزموند وفقاً لأوامر هولز ونواهيه، فسلم الرجل الرسائل وأعطاه إسحق خمسمائه جنيه وسمح له هولز بالخروج على أن يغادر شواطىء انجلترا فى نفس اليوم وبعد أن خرج سأل إسحق مستر هولز كيف نسمح له أن يفر ؟

فقال هولز : إن شقيقه زوج أمك هو المقصود بالذات . وبيننا وبينه سيكون الموقف الفاصل .

وعدنا إلى ٤٠ بيكر ستريت فبدلنا ثيابنا وقصدنا تواً إلى مقر سير ويتنجهام فى قصر أزموند بسرث سكس . وكان سير ويتنجهام قد أبل من مرضه ، وزوجته خرجت لزيارة بعض صديقاتها فقصدنا تواً إلى غرفة المكتبة كما أخبرنا الخادم . فلما رأى الرجل ابن زوجته مد يده للمصافحة . فأبى أن يبادله التحية فدهش ولكنه لم يقل شيئاً وقال له إسحق أزموند : دعنا الآن من النفاق فقد مللته

فقال الرجل ماذا تعنى؟ ومن هذان السيدان ؟

وبعد إطلاعه على الرسائل التى كتبها بخطه إلى أخيه استسلم إلى الاعتراف. فأعطاه إسحق مهلة يوم لينتحر انقاذاً لشرف المرأة التى ظلت بضع سنين زوجاً لقاتل زوجها الأول . فأبى ذلك وطلب بضعة أشهر متعللا بمرضه ودنو أجله

وقبل أن يتمكن هولز من أن يحول بينهما اندفع اسحق ازموند بجنون وتناول خنجراً كان كان معلقاً فوق رأس الجانى وأغمده إلى مقبضه فى فى قلب غريمه وهو لا يعى شيئاً مما يفعل .

فصرخ سير ويتنجهام صرخة مكتومة قوية أشبه بالزئير وكأنما حاول استخراج الخنجر من موضعه

فقال هولز : إنه متشبث بالحياة لأجل المرأة التى أحبها وأجرم فى سبيلها ، وبسرعة غريبة اتجه المطعون نحو مكتبه وكتب بضع كلمات على ورقة ثم سقط على الأرض ميتاً واتجهت أعيننا إلى المكتب وتناول هولز الورقة وكان قد كتب عليها

« سامحينى يازوجتى الكريمة فانى قد انتحرت تخلصاً من آلامى وأمضى باسمه

فقال هولز : لقد أراد أن يخلصك من جرم مصرعه بأن يثبت انتحاره ، لا حباً بك ولكن ليلزمك الصمت فلا تعلم والدتك عن جرمه شيئاً

وخرجنا دون أن يلحظ أحد شيئاً وكانت اللادى ما زالت خارج القصر

محمد لطفى جمعه

عفو الملك أسركاف

أقصوصة مصرية
بقلم الأديب نجيب محفوظ

كان الملك أسركاف من أجل ملوك الأسرة الخامسة الذين حكموا مصر حكماً اقترن فيه العدل بالرحمة والحزم بالكياسة والقوة بالمحبة ، وكان من سياسته — لدى أول عهده بالجلوس على العرش — أن عبأ جيشاً قوياً زحف به على الصحراء الغربية ليقضى على شوكة القبائل الرحالة التى أطمعها ميل الملوك السابقين إلى السلام — فى نهب القوافل وسلب قرى الدلتا والاعتداء على الآمنين ، فانتصر عليها انتصاراً مبيناً وشتت قواها ورجع من غزوته بجيش من الأسرى وأثقال من الغنائم ، ووطد بذلك سلطانه وفرض هيبته وأعلى كلمة مصر وكفى أهلها شر القبائل المتوحشة ، والتفت فى ظل السلام والطمأنينة إلى حالة البلاد الداخلية وأولاها عنايته وحبه ، فشق الطرق وحفر الترع وأقام لنفسه هرماً منيعاً فى أسوان عاصمة ملكه ، فكان عهده عهد أمن ورخاء وتعمير ، وعاش الملك بين شعبه المجيد سعيداً مطمئناً يثلج صدره ما يجد من حب رعيته له ويسعد أيامه ولياليه ما يلقى من إخلاص نفر من كبار رجاله يتفانون فى محبته ؛ وكانوا له نعم المولى ونعم الصديق ، من هؤلاء سحورى ابنه وولى عهده ، وحروري رئيس وزرائه ، وسمن كبير كهنة الرب خنوم ، وسمنرى القائد العام للجيش المصرى

وكان من عادة الملك الصالح أن يذهب كل صباح إلى معبد خنوم للصلاة والعبادة ، وفى ذات مرة دخل إلى قدس الأقداس وخلا إلى تمثال الرب ولثم قدمه ثم صلى صلاة حارة وشكر الرب كثيراً وعدد آلاءه ونعماءه وختم صلاته بقوله : « الحمد لك يا أبى خنوم لما أوليتنى من حب الناس وإخلاص الأصدقاء فان حب المخلوق من رضا الخالق ، وليس أسعد فى الدنيا ممن تسعد القلوب لسعادته وتشقى لشقائه »

ولأن الناس فى تلك الأزمان كانوا يعبدون الآلهة بقلوب ملؤها الاخلاص والايمان والسذاجة فقد كانت الآلهة تكرمهم بالحديث تارة وبالمعجزات تارة أخرى ، ولذلك لم يكن من الغريب أن يسمع فرعون صوتاً سماوياً يقول له :

— لقد منحتك حكمة أيها الملك فلماذا تطمئن إلى الناس كل هذا الاطمئنان ؟

فعجب الملك لقول الرب ودب القلق فى قلبه فقال فى فنوت وخشوع :

— أيها الرب المعبود ... لقد خدمت شعبى باخلاص فصدقنى الحب ، ووفيت لأصدقائى فحق عليهم الوفاء لى ، فكيف يجوز لى أن أدع للريبة نفقاً إلى نفسى ؟

فقال الصوت السماوى الذى يجل عن الوصف والشبيه :

— أنظر إلى الشجرة المورقة التى تملأ الجو بالأغصان وتتلفع بالخضرة اليانعة كيف يفىء الناس إلى ظلها الممدود يحتمون به من أشعة الشمس ويقطفون ثمارها الدانية ، وانظر إليها إذا جرد

الشتاء عليها الرياح الباردة فتساقطت أوراقها وذبلت أغصانها وتعرت كئة بالية لم يصنها تحنيط ، كيف يهجرها الناس ويقطعون أغصانها ليلقوا بها فى النيران ... !

وعاد الملك إلى قصره حزيناً كئيباً يستعيد ما قال الرب ويتأمل فى معانيه ، فيوسوس الشك فى صدره ويرين القلق على قلبه ، ومضى يستحضر ذهنه الوجوه العزيزة التى عاشرته الأعوام الطويلة فى مودة وصفاء — لأول مرة — فى هالات من الريبة تكشف خلف أحاديثهم الرقيقة عن أكاذيب معسولة وتستشف وراء ابتساماتهم رياء مقيتا وترى فى فروض الطاعة التى يلتزمها أثراً للرهبة والخوف ، وطغت موجة عارمة من سوء الظن على نفسه فجعل يرجع إلى الماضى السعيد المنطوى يلاطخ صفحاته الناصعة بقاذورات الظنة والشك فبدت له حياته التى آمن يوماً بأنها سلسلة من السعادات غفلت عنها عين الأقدار ... خدعة نكراء وشقاء قابعاً خلف قناع سعادة زائفة

وفطن الأمير سحورى إلى حالة الملك الغريبة فتبلبل فكره وركبه الهم وسأل أباه عما يكدر صفوه وكان الأمير يحب والده حب عبادة ، وكان الملك يحب ابنه كأعز شىء فى دنياه ، ويثق به ثقته بنفسه فبثه حزنه ، وأفضى إليه بمخاوفه ، وروى له حديث الرب خنوم . واستولى الارتباك على الأمير ولم يدر كيف يطرد عن أبيه أشباح الشكوك ، وكان الملك لا ينقطع عن التفكير فقال لولى عهده :

— أنا لا أستطيع التنكيل بالمنافقين مالم يقم لى الدليل المحسوس على نفاقهم وقد اهتديت إلى طريقة أكشف بها عن خبيئة نفوسهم فاصغ إلى يابنى .

سأقوم من الغد برحلة إلى بلاد بنت ، فتول أنت مهام الدولة فى أثناء غيبتى ، وانتظر أياماً ثم أعلن نفسك ملكاً على وادى النيل ، وأطمع صحابتى فى جاهك ومالك وعدهم ومنهم كى يخفضوا لك جناح الذل والطاعة ولنر ماذا يكون من شأنهم ...

ولكن قلب الأمير نفر من تدبير فرعون واحتج قائلا :

— أضرع إليك يامولاى ألا تحملنى على موقف أشهر به عقوقى على العالمين ! وألا ترضى بغيبة طويلة تحرم قلبى من طمأنينته وتسلب الشعب سهرك عليه وعنايتك به .

ولكن الملك أثنى على عواطفه وبدد مخاوفه وحمله على الرضوخ والاذعان وذهب إلى الملكة الشابة تاي — وهى غير أم ولى العهد التى ماتت منذ عهد بعيد — فودعها كما ودع كلبه الحبيب زاى، ثم ركب سفينة تجارية أبحرت به إلى بلاد بنت المقدسة منبت البخور العبق ؟ وعاش عهداً غير قصير يتنقل بين وديانها الخصبة فيلقى الاكرام والترحيب اللذين كان يقابل بهما رعايا فرعون أينما حلوا وحيثما نزلوا ... وكان لا ينفك يفكر فيما عسى أن يلقاه من رعيته وصحبه حين أوبته وكان كلما لج به سوء الظن وأورده مهالك الأوهام والهواجس فر إلى جميل الذكريات المنطوية يستدر ثقتها ويستلهمها الصبر والطمأنينة ، فلما أن ضاق صدره بالقلق والوساوس وغشيت قلبه وحشة الغربة عزم على العودة إلى وطنه فجمع متاعه القليل وأبحر على ظهر سفينة مصرية أرست به على شاطىء الأرض التى أفنى زهرة عمره فى سبيل إسعادها ، وقصد من توه إلى أقرب قرية واختلط بأهلها وهو فى ثياب

القرية حتى أنسوا به فسأل جماعة منهم يوماً قائلا :

— من ملككم أيها الرجال ؟

فأجابه شاب لفحت الشمس وجهه وفتل الفأس ساعديه .

— المبارك اسمه سحورى

فسأله الملك :

— وكيف ترونه ؟

فقال الشاب بحماس أمن عليه رفقة ؤه :

— هو ماؤنا إذا النيل نضب وساعدنا إذا اشتد الخطب وادلهم

فسأله الملك :

— فكيف تذكرون أسركاف ؟ فقال :

— بالخير لولا أنه فى ميدان وملكنا فى ميدان

فتنهد الملك وسأله بصوت حزين :

— كيف خذلتموه وقد كان لكم نعم المولى ونعم النصير ؟

فحدجه الشاب بنظرة قاسية وقال له وهو يوليه كشحه .

— إن العصيان شر لعنته الآلهة ...

فهجر الملك القرية حزيناً وسار إلى النيل إلى عاصمة ملكه ، وولى وجهه شطر معبد خنوم وطلب مقابلة الكاهن الأكبر ممن فدعى إلى المحراب ولما رآه الكاهن عرفه بالرغم من ثيابه الغريبة فبدت عليه الدهشة وتولاه الانزعاج وهتف بصوت مبحوح :

— مولاى الملك أسركاف

فابتسم الملك ابتسامة مريرة ساخرة وسأله كالمفكر

— كيف تدعونى بمولاك الملك وقد باركت بالأمس عاصيا عاقا اغتصب عرشى ؟

فاضطرب الكاهن وزاغ بصره وقال بتلعثم :

— مولاى ، وما عسى أن يفعل رجل ضعيف مثلى لم يعد للقتال ؟

— ليس القتال فريضة على كل إنسان ولكن الوفاء واجب محتوم على كل رجل فاضل ، فكيف تخلد إلى خدمة من غدر بمولاك وولى نعمتك ؟

واشتد الارتباك بصديق الملك القديم واعتلته حيرة ، فلم يحر جواباً ، فقال فرعون :

— تستطيع يا سمن أن تكفر عن ذنبك بأن تعلن على الملأ عدم شرعية ولاية ابنى سحورى فتقدم إلى خدمة بطمعنى فى أدائك لما ماعهدته فيك من الوفاء فى عهد مضى

ولكن الكاهن ذعر وارتعب وقال بتضرع :

— لا أستطيع يامولاى ... إن واجبى خدمة الرب لا خلع الملوك

فصمت الملك لحظة يطارد بعينيه المستمرتين عينى الكاهن اللتين تتحاشيان النظر إليه ، ثم ولاه ظهره دون أن يزيد وترك المعبد كئيب النفس ضيق الصدر يمض أنامله حسرة وأسفا

وأسرع الخطى إلى قصر رئيس الوزراء حرورى وطلب الاذن بمقابلته ولكن الخدم احتقروا هيئته الزرية فهموا بطرده فتوسل وتضرع فما زادوا إلا استكبارا فقال لهم إنه صديق الوزير وسمى لهم اسما يعلم أنه من المقربين ، فأذن له بالدخول وما إن وقع نظر الوزير على القادم حتى فزع قائما وقد أثلجت أطرافه واتسعت حدقتا عينيه وصاح بلا وعى :

— مولاى

فقال الملك بهدوء :

— طيب الرب أوقاتك أيها الصديق حرورى

فاستولى الهلع على قلب الوزير وسأل مليكه السابق فى لهفة :

— هل رآك أحد وأنت تدخل بيتى ؟

فغطن الملك إلى الباعث على هذا السؤال وبدأ يستشعر اليأس والقنوط فقال :

— نعم أيها الصديق رآنى الخدم وجمع غفير ممن يجتمعون ببابك

فسأله بصوت يحه الفزع :

— وهل عرفك منهم أحد ؟

فقال الملك :

— لا أدرى

فصاح الوزير :

— واضيعتاه لو علم الملك بزيارتك لقصرى

— وهل تخاف هذا الغاصب العاق ؟

— كيف لا ؟ أتوسل إليك أن تغادر قصرى من الباب الخافى

— أو تطردنى أيها الصديق حرورى ؟

— معذرة يامولاى ، إن ظرفى دقيق وإنى أضرع إليك باسم صداقتنا القديمة

فضحك فرعون ساخراً ، ورأى رئيس وزرائه فى حالة من الهلع يرثى لها فلم يجد به من فائدة ترجى ولم ير بداً من مغادرة القصر من حيث أراد صاحبه فغادره وقد اعتلاه الحزن وران على صدره الندم...

ولم يبق من أصدقائه سوى القائد سمنرى ، وبالرغم مما حل به من الفشل لم يقو سوء ظنه ومرارة نفسه على زعزعة ثقته به لأنه كان رجلا شهما باسلا وعظيم الاخلاص ، ميزته الأرباب بطبع لاتطمع فيه الخيانة ولا الدنايا، فقصد إليه ببقية أمل وطلب الاذن بالدخول عليه . ولما وقعت عليه عيناه حن قلبه إليه فصاح به وهو يفتح ذراعيه له :

— أيها القائد سمنرى ... ألا تذكرني ؟

وبهت القائد وقام واقفا منزعجاً وقال بدهشة :

— مولاى الملك أسركاف

فقال فرعون برجاء :

— نعم هو بذاته وبؤسه وأسفه

ولم ير القائد ذراعى الملك المفتوحتين وبدت على وجهه آى الصلابة والشدة ، فسأل مليكه السابق بجفاء قائلاً :

— هل يعلم جلالة الملك بدخولك مملكته ؟

فبغت أسركاف وسقطت ذراعاه فى خيبة مرة وقال باقتضاب :

— كلا

فسأله القائد بلهجة أشد من الأولى :

— وماذا جئت تفعل فى مصر ؟

فقال الملك :

— جئت أستصرخ أصدقائى القدماء

فتقدم القائدمن فرعون وقال بلهجة عسكرية :

— إن واجبى كقائد للجيش المصرى يقضى على بأن ألقى القبض عليك باسم الملك

فقال له أسركاف :

— ألا تعلم أنى أنا الملك الشرعى . فقال القائد وهو يضع يده على كتفه :

— إن لمصر ملكاً واحداً لا أعرف سواه

وأيقن فرعون بعبث الجدل فاستسلم للقائد وترك له نفسه يسير به إلى القصر الفرعوني ودخل القائد إلى بهو العرش يسوق بين يديه الملك ، ورأى أسركاف ابنه جالساً على عرشه ومن حوله رجال مملكته وعلى رأسهم حرورى وسمن فعلم أنهما بادرا

إلى المثول بين يدى مولاهم لينبأه بظهوره ، وحمد فى نفسه مجيئهما ليشهدا ويشهد معهما القائد صموده إلى عرشه وتسلمه الأمانة التى أودعها يدى ابنه الأمينتين فيذوقوا جميعاً مر الخزى والعار وتذهب نفوسهم الخبيثة حسرات وتتقطع ندما ...

ونظر الملك إلى ابنه وابتسم إليه ابتسامة ذات مغزى عظيم وهم بالكلام لولا أن سمع نباح كلب عالياً ورأى زاى يتخطى صفوف الحرس ويهرع إليه بقوة لا ترد ويشب عليه بيديه ويوسعه حنيناً دل على الجوى والشوق ، وما استطاع أن يهدئ ثائره ويطيب خاطره إلا بعد جهد جهيد، وغلب التأثر على الملك فتقدم إلى عرشه بخطوات ثابتة حتى أوقفته أيدى الحرس ، فاستولى عليه العجب ونظر إلى ابنه وقال:

— قم يا بنى فقد انتهت تجربتى ودعنى أمثل بهؤلاء المنافقين

ولكن ابنه لم يقم ولم يتخل له عن مكانه وقال له بعظمة السلطان :

— ماذا جئت تفعل هنا أيها الرجل الذى أعطته الآلهة ملكا واسعاً فتهاون فى حقه وذهب يلهو فى بلاد بنت ؟

فوقع قول الابن على أبيه وقوع القضاء، فاتسعت عيناه وجرت فيها الدهشة والجنون وجعل يقلب وجهه الداهل بين ابنه المتعجرف ورجاله الشامتين.

ولم يصبر عليه ابنه فقال له بقسوة :

— يحق لى الآن أن أفصل رأسك عن جسدك ولكنى لا أنسى أنك أبى ولا أحب أن أرتكب تلك الجريمة التى تستنكرها تقاليدنا فأوسع لك من صدرى صبراً وأمهلك يوماً تعد فيه عدتك ومن ثم تنفى إلى بلاد النوبة ...

وأثنت الحاشية على بر الملك ولهجت ألسنتهم له بالدعاء ؛ أما أمر كاف فقد اشتد عليه البلاء حتى ألجم منه اللسان وشلت الأعضاء ، وكان زاي قد أحس بأله فجعل ينبح ويتحسس عباءته التى عفرها التجوال

وأفاق الملك إلى نفسه فثار على ضعفه وتمالك زمام نفسه وقال لابنه :

— والملكة تاى ؟ . فقال له ابنه :

— هى الآن ملكة مصر السعيدة

فتنهد الملك وقال :

— هل أطمع فى أن تأذن لى فى اصطحاب زاى ؟ فقال :

— لك هذا فقد ضايقنا بنباحه !

وغادر الملك أرض مصر ملوماً محسوراً يقلب كفيه من الألم والحزن وسوء المصير وولى وجهه شطر الجنوب يتبعه كلبه الأمين وحط فى بلاد النوبة وعاش بين جبالها فى عزلة رهيبة لا يكلم إنسيا، فاذا ثقل عليه الهم والألم بث شكواه المخلوق الوحيد الذى صدقه الحب ومحضه الوفاء واحتمل وحشة العزلة صابراً من أجله

ولم يدعه حاكم النوبة المصرى فى عزلته طويلا فزاره ودعاه إلى زيارته ولم يخف عنه المودة والاكرام وما لبث الملك أن اكتشف خبيئة نفسه فوجده حاكما متذمراً يرى منصبه فى بلاد النوبة غبنا له وسوء تقدير لخدماته ومؤهلاته . فالتمع فى قلب الملك بارق أمل فاستغل سخط الحاكم ووعده ومناه حتى حمله على تجريد حملة من النوبيين والمصريين، سارا على رأسها صوب الشمال ، وأعد الملك سحورى جيشا لتأديبهما والتحم الجيشان فى معركة فاصلة حالف

النصر فيها الملك أسركاف فدخل عاصمة ملكه فاتحاً وقبض على ابنه وأصدقائه الفدماء وأودعهم غيابات السجون ...

ولما علمت الملكة تاى بانتصار جيش زوجها السابق تولاها الخوف فقتلت نفسها وفوتت على الملك فرصة الانتقام منها ، على أن الملك لم يرض أن يبت فى أمر من الأمور ولا أن يقرر مصير أحد من أسراه إلا حين يسكت عنه الغضب وتهدأ نشوة الانتصار فى نفسه ويجد فرصة طويلة للتروى ومهلة للتفكير . وسهر ليلة طويلة يفكر ويديم التأمل حتى اهتدى إلى رأى ...

وفى الصباح أمر بابنه وصحبه فجىء بهم إلى عرشه وكانوا جميعاً منكسى الذقون زائغى النظرات ترهقهم ذلة ويشملهم قنوط . فتأملهم الملك ملياً وعلى شفتيه ابتسامة غامضة ثم قال بهدوء عجيب :

— لقد عفوت عنكم جميعاً

فاستولت عليهم الدهشة ولم يصدقوا آذانهم ونظروا إلى الملك الجالس على عرشه بتهيب وتبادلوا نظرات التعجب والحيرة وعدم التصديق ، فقال الملك بهدوئه العجيب :

— إنى أعنى ما أقول أيها السادة ، لقد عفوت عنكم فعودوا إلى مناصبكم وباشروا أعمالكم بالهمة والاخلاص للذين عهدتهما فيكم

ولم يستطع حاكم بلاد النوبة صبرا فقال :

— أتعفو يا مولاى عمن اغتصب عرشك وطردك من مملكتك بلا رحمة ؟ أتعفو عنهم يامولاى وما يزال عالقا بأرديتهم أثر الدم الذى سفكوا فى قتالك ؟

فابتسم الملك وقال بتهكم :

— من لى بولى عهد جديد ؟ ومن لى بكاهن أتقى من كمن أو وزير أقدر من حرورى أو قائد أبرع من سمنى ؟ بل يا ليت الملكة تاى لم تسارع إلى القضاء على نفسها إذاً لأجلستها إلى جانبى على هذا العرش مرة أخرى ، أما الاخلاص أيها الحاكم فقد أمسيت أسىء الظن بجميع البشر ؛ ولست أعظم ثقة بك نفسك منى بهؤلاء ، وإن جميع الناس ليأوون إلى ظل الشجرة المورقة فاذا عراها جدب الشتاء هجروها غير آسفين ، ولن يجدبنى قتل هؤلاء فتيلا كلا ولن يبدانى بهم من هم خير منهم

وعاش الملك أسركاف بقية عمره فى عزلة قلبية لا يؤنس وحشتها قصر آبو ولا الجم الغفير من الشعب والحاشية اللهم إلا زاى الصديق الأمين !

نجيب محفوظ

التصوف الاسلامى
فى الادب والاخلاق

بقلم الدكتور زكى مبارك

يقع هذا الكتاب فى مجلدين كبيرين وثمنها معاً أربعون قرشاً ، وهو يطلب من المكاتب الشهيرة فى البلاد العربية ويطلب بالجملة من مطبعة الرسالة

الفن

أقصوصة مصرية

بقلم الأستاذ محمود بك خيرت

كان التمثيل والغناء والموسيقى فيما مضى من الفنون البغيضة فى عيون الطبقتين الراقية والمتوسطة، يُغضى أفرادهما عنها ويحتقرون من يزاولونها حتى لقد طرد أحد الآباء زميلا لى أراد الالتحاق بقسم الموسيقى من مدرسة الصناعات لأنه يعتبر حرفة « المزيكا » . وكم ذاق الأمرّين من أبيه زميل آخر كان يقطع لياليه بالجرى خلف الحفلات التى كان يحييها المرحومان عبده الحمولى ومحمد عثمان . وذلك لأن أولئك الناس كانوا البقية من رجال العهد القديم لم تتفتح أعينهم على النور ولا تذوقوا ما لهذه الفنون من معانى الجلال والجمال والسحر . ولذلك كانت من نصيب فقراء البلد لأنها من بعض وسائل العيش والارتزاق . وكانوا على كل حال أقرب إلى الأميين ، حتى فكر الطلبة فى ترقيتها والنهوض بها، فألف بعضهم جمعية أطلق أعضاؤها عليها اسم « جمعية إحياء التمثيل »

وكان لرئيس هذه الجمعية صلة وثيقة بوجيه سرى له دار فسيحة فى حارة قواوير على مقربة من شارع الناصرية بحى السيدة زينب، فسمح له — ولكن على كره — بالاجتماع مع زملائه فيها

وما كانت كراهية هذا السرى إلا لأنه من بقايا ذلك العهد، ولأنه شيخ درج على التقوى والعبادة، فكان فوق مقته هذه الفنون بحكم طبيعة عصره يرى فيها صارفا عن ذكر الله ومادة من مواد اللهو لا تثمر غير العبث . ولكنه مع ذلك كان يلبى رجاء رئيس الجمعية فى حضور جلساتها للوقوف على ما يدور فيها واسماع ما يلقيه أعضاؤها فى كل أسبوع من القطع المختارة، فكان يعجب بالمرحوم عبد الرحيم[1] عند ما يمثل قطعة (مكبيث) التى يخاطب فيها خنجره، وبالمرحوم محمود مراد[2] وهو يعزف على الكمان، كما يعجب بغيرهما من الأعضاء، حتى إذا رأى أن ما يمارسونه يجرى فى حدود الاحتشام ويسمو بالنفوس إلى سماء التهذيب لم ير بأسا من الإذن لحفيدته « فتنة » بالحضور معه فى تلك الجلسات

وكانت فتنة فى الثالثة عشرة من عمرها صبوحة الوجه مشرقة الجبين ساحرة العينين رودا ناعمة ، يبشر جمالها بأن سيكون له من اسمها فيما بعد نصيب، وعنى جدها بتعليمها فى المدرسة ثم حجزها ورتب لها معلمين يستكملون ثقافتها

وكان الدَّوْر فى إحدى جلسات الجمعية على فتى فى السادسة عشرة من عمره اسمه زاهر يعلمه إخوانه حييا خجولا، فكانوا فى شوق إلى مشاهدته وهو يمثل، وينتظرون أن يحكموا على مبلغ ذوقه فى اختيار القطعة المكلف بالقائها، وعلى ما إذا كان حياؤه سيقف حائلا دون ما هو آخذ به. حتى إذا دق الرئيس الجرس أقبل عليهم قسّيس فى أسمال ممزقة له شعر غزير ولحية طويلة علاها الشيب ، وعلى إحدى عينيه عصابة من خرقة بالية ، وبيده عكاز يتكىء عليه ويهتدى به وقد تقوّس ظهره وهو يخطو نحوهم بخطى مضطربة بطيئة ، حتى إذا ما توسط المكان أخذ يروى لهم قصة حياته :

(١) ، (٢) كانا من أساتذة التعليم بوزارة المعارف

« يا لَظالم الحظوظ ويا لقسوة الأقدار . لقد كنت آمناً مع زوجتي وأولادي . وكنت في أيام الآحاد أعظ أهل القرية وأفتح عيونهم على طريق الهداية ، وأحذرهم عصيان الله ونزوات النفس . حتى إذا كانت ليلة من ليالي الشتاء سادها الظلام وخيّم عليها السكون — إلاّ ما كان يتخلله من حفيف الأشجار ونباح الكلاب — اشتد المرض بامرأتي فتقلّص وجهها وذبلت عيناها وانعجم لسانها . كانت تحتضر وأولادها حول سريرها يصرخون ويبكون

في تلك اللحظة لم يخامرني شك في أنها مقبلة على ساعتها الأخيرة ، فخطر لي أن أقوم نحوها بواجبي كقسيس ، فسألتها أن تعترف بما يكون قد فرط منها لأغفر لها . ولكنها كانت تحملق فيّ وكأنها تفرّ من الكلام ، حتى إذا ألححت عليها وألححت عليها منيتها أيضاً استجمعت ما بقي لها من قوة وقالتها كلمة واحدة كان فيها الشقاء الذي ركبني إلى اليوم : إن هؤلاء ليسوا بأولادك ...

عندئذ انخلع قلبي وطار صوابي وانقسمتُ إلى رجلين أحدهما زوج مجروح يريد أن ينتقم ، والثاني قسيس فرض الله عليه الصفح والرحمة . وهكذا قامت في نفسي حرب بين عاطفتين نبتت إحداهما من الأرض ، وهبطت الأخرى من السماء . حتى إذا بقي الزوج واختفى القسيس همت بالانقضاض عليها ولكنها كانت قد أسلمت الروح ...

في تلك اللحظة الهائلة أظلمت الدنيا في عيني ونسيت وجودي فلم أشعر إلا وأنا أتسلق جبل المقطم أعيش فيه بعيداً عن شرور الناس

وكانت أسنانه عند ذلك تصطك وجسمه ينتفض وقد أفلت عصاه من يده فوقع على الأرض كتلة هامدة . وعندها دوى المكان بالتصفيق وأقبلنا عليه نهنئه ، وهو فوق قيامه بأداء ما مثل كان الواضع لهذه القطعة الفريدة ، فكان نجما متألقاً في سماء التأليف وفي سماء التمثيل

أما صاحب الدار فكان أول من أسرع ليطمئن عليه وينهضه ، ثم انتقل به إلى حيث كان يجلس وحفيدته تنظر إلى هذا القسيس البائس وعلى ملامح وجهها دلائل التأثر كأن ما حدّث به حقيقة واقعة ، حتى إذا ما نزع الشعر المستعار عن رأسه واللحية التي استعان بها في مهمته صاح عبد المجيد بك : زاهر ! أنت زاهر ؟ تعال يا بني تعال . فلقد خيّل إليّ أن ما صادفك لم يعد الحقيقة حتى أشفقت عليك وأسرعت نحوك . رحمة الله على أبيك فقد كان نعم الصاحب ونعم الجار . الحمد لله على أني ظفرت بك وامتلأت نفسي منك . لم انقطعت عني يا زاهر وأنا كعمك ؟ ألم تكن تلعب وتلهو مع فتنة وأنتما صغيران ؟ بالله لا تقطع بعد ذلك زيارتك عنا فإنها تبعث في نفسي الرضى وتذكرني بالمرحوم أبيك

وعند ذلك سكت وهو يفكر ، وأمسكت فتنة عن الكلام أيضاً وتيّار تفكيرها يتجهُ إلى هدف واحد هو زاهر . كان الشيخ يوازن بين ما أصبح يحمله من أثقال الشيخوخة وبين شباب هذا الفتى الناضر وكل ما في وجهه يضحك للحياة ويبتسم للأيام . يقول في نفسه : لقد كان لي مثل هذا الشباب فمن لي به أشعر عنده في كل خطوة من خطواتي بالحياة وأنا لا أفتح عينيّ كل صباح إلا على أمل ولهو جديدين ، ولكن الناس لا يعرفون قدر الشباب الذي يمرحون في مروجه إلا بعد أن يولي وهم يباهون بما يحسّونه من فتوّة الصبا حتى أن كثيراً من رفاقي بالمدرسة كانوا يحملقون في قرص الشمس متنافسين فأصاب أكثرهم العمى . ومنهم من فقدوا أسنانهم البيضاء القوية قبل الأوان لأنهم

كانوا يرفعون بها الأثقال والمقاعد وما خلقت عيوننا ولا أسناننا لمثل ذلك

— قل لى يازاهر . ما الذى شعرت به وأنت تمثل دور هذا الشيخ الفانى ؟

— لا شيء وكل ما كنت أفكر فيه هو أن أتقن تمثيله

— ألم تلفتك هذه الصورة المستعارة إلى ما أنت فيه من نعمة الشباب ؟

— أبداً ياعمى

— لقد كنت تكذب الآن على شبابك يازاهر، وسيأتى يوم أرجو أن يكون بعيداً لا تحتاج عنده إلى تمثيل هذا الدور . ليتنى كنت اليوم أمثله مثلك. أحنى ظهرى فأذكر اعتدال قامتى؛ وأخضب بالبياض رأسى فأنتبه إلى سواد لمتى ؛ وأرسم الأسارير على جبينى فأهتز نشوة من نعومة بشرتى ؛ وأتكلم والمى يلاحقنى فأحمد الله على ما حل من عقدة لسانى . اذكر الآن وماء الشباب يتدفق فى جسمك النضير أنه سيأتى عليك يوم تبكيه حين لا تجده. فخذ لشبابك القائم من مشيبك المستعار، ومن غدك المجهول ليومك الحاضر .

أما فتنة فكانت فى حيرة من هذا القسيس المحطم كيف انقلب فى لحظة فتى مليح القسمات رشيق الحركات، يجرى فى بشرته ماء الحياة الدافق، وتبدو على وجهه نضرة الشباب المبتسم ، ويشع من عينيه الذابلتين السحر حتى لكأنه وردة بهية أطلت من خلال أشواك ذلك القسيس . ولكنها ما كان ليخطر على بالها أنه سيكون له يوماً ما ذلك النصيب ، ولا أنها سيأتى عليها يوم تصبح عنده كجدتها التى هرمت وقضت . وذلك لأن النفوس المخمورة بسكر الشباب والنعمة لن تفكر فى سواها .

وكان زاهر فى خلال ذلك مطرقاً صامتاً ولكنه كان يخالسها النظر، وهى تحس ذلك فينطلق بها الخيال إلى الأيام الأولى التى كان يضمها وإياه فيها ذلك الفناء الفسيح تمدو فى جوانبه كالأرنبة البيضاء البضة وهو يلاحقها وهى تحاوره حتى إذا أخذ منهما التعب اتجها إلى متكأ خشبى وأخذا يفرطان أوراق الورد المقطوف من الحديقة وينثرانها على الأرض فيتذمر الخادم لاضطراره إلى كنسها، ولكنها تضحك بملء فيها قائلة : وهل تكره يا عم رجب أن نكسو لك سطح هذه الأرض بالورد ؟ وعند ذلك يهتز لجوابها الظريف ويدعو الله أن يعيش حتى ينثر هو الورد تحت قدميها فى يوم زفافها إلى زاهر ، وعلى أثر ذلك تغرق هى وزاهر فى ضحك برىء كخرير الماء الصافى .

ومن غير شك أنها كانت لا تفهم للزواج معنى إلا أن مصير كل فتاة وفتى إليه على ما تسمع من جدها وجاراته . أما الآن فقد أخذ معناه ينكشف لعينيها شيئاً فشيئاً انكشافاً بطيئاً مبهماً ، إلا أنها كانت تشعر مع ذلك بأنه حال من أحوال الحياة لا غنى عنه . وسيأتى يوم قريب تكتمل فيه أنوثتها ورجولته فتستيقظ فى نفسيهما عاطفة أخرى تجعل من الزواج سعادة وجنة

ولقد ظلت فرقة إحياء التمثيل تجتمع فى دار جدها ثم انتقلت منها إلى سواها حتى كتب لها التوفيق والنجاح بعد خمس سنوات كانت باكورة جهودها بعدها الاعلان عن تمثيل رواية روميو وجوليت فى دار الأوبرا بالاشتراك مع بعض الممثلات المحترفات

* * *

لم يقع اختيار الفرقة على هذه الرواية إلا لأنها مأساة أسهل من سواها فى تمثيلها وأشد تأثيراً فى نفس الجمهور فهى أقرب إلى الظفر باقباله

ولكن زاهر الذى أسند إليه دور روميو لم يكن ليكتفى فى القيام به بالقدر الضئيل الذى اكتسبه من طريق المران، ولذلك عكف على دراسة هذا النوع عند الاغريق وعند الانكليز والفرنسيين

والاغريقيون تفتنهم المحاسن فهم يتوخون فى حوادث التاريخ البساطة لأنها من خير الوسائل فى إظهار جمال الخطوط ونبل الأوضاع . أما الانكليز فولعون بالحوادث العادية ولكن المعقدة ، لتكون خواتيمها أشد تأثيراً ، على عكس الفرنسيين الذين يكتفون بأبسط الحوادث يرتبون نتائجها على مقدماتها فى أسلوب منطقي حكيم . وهكذا كان لكل من هذه المآسى الثلاث وحدة خاصة ومعيار مستقل ، فتتأثر بجمال الفن وعظامته عند الاغريق ، وتدرك دقة الملاحظة فى دقائق الحياة عند الانكليز، وتلمس عند الفرنسيين سلامة الذوق فى أسلوبهم المنطق . ثلاثة رؤوس شامخة تزينها أكاليل من الجمال والحياة والحكمة

وقد لا تخرج جميعها عن فتاة وفتى جمع بينهما الحب ولكن حال بينهما حائل من الواجبات كأنتيجون وهيمون عند الاغريق، وروميو وجولييت عند الانكليز، ورودريج وشيمان عند الفرنسيين. فهى على ما يظهر تستق من معين واحد ، ولكن نتائجه تحمل طوابع خاصة لتعدد الأساليب المتبعة فى كل منها ، فتجد فى المأساة الفرنسية حرباً عواناً بين خلجات النفس وبين مطالب الواجبات، وهما عاطفتان متباينتان يتوقف مصير كل منهما على الشرارة التى تنبثق من اصطدام إحداهما بالأخرى . أما روميو وجولييت فلا يخوضان مثل هذا الصراع العنيف وقد طواهما سلطان الحب العاتى فيقتحمان ما يعترضهما من الموانع بخطى عمياء لا يسمعان فى خلالها غير صوته، وهما يتناجيان وسواعدهما ممدودة متوثبة للعناق حتى تحجبهما ظلمة القبر، هذه الظلمة التى أخفى هيمون جثة حبيبته فيها عن حساده لتستقبل شفتاهما عندها قبلة النوم الأبدى الهادئ

وعلى أثر هذه الدراسة انطلق زاهر يتفهم موضوع دوره ثم أكب على حفظه ، وأخيراً أخذ يجرب تمثيله أمام مرآة اشتراها لهذا الغرض ليرى بعينيه كيف يروض مخارجه على النبرات التى توجبها مقتضيات الالقاء، وكيف يوزع على أعضائه وأطرافه الحركات التى تتفق مع هذه المقتضيات . ولكنه مع ذلك كان لا يزال يشعر بخلو تمثيله من الحرارة والروح فى شتى المواطف التى تتخلل موقفه من حب ومحرق، وحزن وبكاء، وجفوة وعتاب، إلى غير ذلك مما لا يمكن استعارته أو تقليده أو خلقه

وكان الخجل والحياء المتأصلان فيه من الأسباب القائمة فى وجه نجاحه حتى أنه كان إذا رفع صوته فى مواقف الشدة ظل ضعيفاً منخفضاً كالشخص الذى يعانى فى النوم كابوساً يضغط على صدره فيخيل إليه أنه يصرخ ويستنجد وصوته مع ذلك لا يصل إلى سمع أقرب الناس منه

وما كان هذا ليمنعه من الاقبال ثانية على المرآة والعودة إلى مخاطبة نفسه فيها، ولكنه يجد أنه لم يخط خطوة جديدة فى طريق الاقتراب من الحقيقة وساعداه يتحركان حركات آلية كأنهما ليسا منه، وفمه يخونه فى إخراج عباراته على ما يجب، كأنما قد سكنه طاقم جديد من أسنان صناعية يعوق أداء المخارج صحيحة متزنة . وهكذا تثور نفسه ويغلب عليه يأسه فيلعن التمثيل ويلعن الفن ، ويخص باللوم والعتاب زميله عبد الرحيم الذى خصه بهذا الدور

ولكنه يرجع بذاكرته إلى تاريخ (المسارح) فيجد من بين الممثلين من كانوا مضرب المثل فى النبوغ مثل راشيل وتالما وفريدريك لوميتر الذى

مثل ذات ليلة دور أسد ، أثر ألقى الرعب فى قلوب الحاضرين حتى أغمى على بعض السيدات ، ووضع فريق آخر أيديهم على قبضة مسدساتهم ، فلما أدركوا أنه لم يكن غير فريدريك أخذوا عند باب الدار يشيعونه لكمات كان يستقبلها بصدره مبتسما نشوان وهو يراها أثراً جديداً من آثار نجاحه

وعند ذلك يتساءل كيف أمكن لهؤلاء أن يصلوا إلى هذا الكمال ؟ وكيف دان لهم التوفيق بين إلقائهم وحركاتهم وبين الصور المختلفة التى وضعها المؤلفون مع تدرجها من الشدة إلى اللين ، ومن الثورة إلى الحلم والاسترخاء ، وغير ذلك مما لا يظفر به الممثل إلا إذا غاب عن نفسه وأصبح شخصاً آخر يتقمص كل هذه الصور ويفنى فيها ؟ إنه حاول كل سبيل للوصول إلى هذه الغاية فخانه أمله وقعد به جهده

وعند ذلك يجد أنه لا فرق بين أساليب المؤلفين وبين علامات الموسيقى وهى لا تعدو أكثر من تسجيل اتجاهات الألحان التي وضعها بيتهوفن وليست وموزار وغيرهم دون أن ترسم سر الطريقة الفنية Technique التى مرنت أصابعهم عليها ، وما كانت إلا الروح التى بثها وحيهم فيها عندما كانوا يعزفون تلك الألحان

وهكذا يشرق جبينه وتتقد عيناه وقد اهتدى أخيراً إلى أن الممثل لا يخرج عن اثنين ، أحدهما لا هم له إلا محاكاة الفن (Acteur d'art) فهو مقلد متكلف ؛ والثانى ممثل يغمره وحى العاطفة فيخرجها فى ثوبها القشيب الطبيعى ، إذ شتان بين من يصور للناس روميو فى موقف غرامه وشقائه ، وبينه هو وهذه العاطفة تنبثق من نفسه الواجدة المعذبة

وأخيراً ينتهى الأمر به إلى أن ممثل الحب يجب أن يكون هو أيضاً قد جرّب الحب ونعم بجنته واكتوى بناره ، فمن أين له هذا وما وقع له ولا انغمس فيه ؟ بل إن السيدة التى خصصت لدور جولييت لتؤديه معه لم تكن غير امرأة جاوزت الأربعين ، ولم يكن على وجهها أثر لحسن ولو قديماً . وهى فوق ذلك من تلك الطبقة الجاهلة التى لا ينتظر منها أكثر من أداء دورها على أية صورة كانت ، فمثل هذه لا تشجعه ولا تنفخ فيه من تلك الروح التى لجولييت ، حتى إنه كان إذا وقف يخاطبها شمر بالوحدة وأغمض عينيه لكيلا يقع بصره عليها فيضطرب ويفلت زمام الأمل الباقى فى نفسه من يده

وكان موعد التمثيل قد اقترب ، فأخذت الصحف اليومية والمجلات تفيض فيه باعتباره حادثاً قومياً فذاً يمتّ إلى نهضة جديدة ويسد فراغاً فنياً كان لا يزال داعياً إلى الأسف . وأخذت كذلك تذكر أسماء الممثلين ونشأة كل منهم ومقدرته وما ينتظر على يدهم فى هذه الخطوة المباركة الجديدة

ومن هذه المجلات علمت فتنة أن رفيق صباها سيكون بطل هذه الرواية الخالدة . بل بطل ذلك الحب القديم عند روميو والجديد عندها ، وقد بدأت بالميل إلى هذا الفتى الجميل الغريب . ولكنها كانت تقول فى نفسها إن تلك السورية[1] التى ستمثل معه لأوفر منها حظا وأكبر سعادة ؛ وستسمع أذناها أول أحاديث الحب التى كانت هى أولى بها منها . وعند ذلك ينتفض جسمها ويخفق فؤادها . وتقول بعد ذلك إنه لولا جمود شعوره وتحجر قلبه لما انقطع عن زيارة جدها وقد أذن له بها . ولكنها لا تلبث

(١) لم يكن للمصريات فيما مضى نصيب من التمثيل كما هو حاصل اليوم

أن تلتمس له الأعذار وزمنه ذهب بين المصلحة التى يعمل فيها، وبين متاعب المسرح التى يعانيها، فتتجدد الرغبة فى نفسها إلى مشاهدة تلك الرواية ، بل إلى مشاهدته هو والناس معجبون به مصفقون لنبوغه

وإذا كانت فتنة قد اطمأنت نفسها إلى تلك الأعذار التى تبرعت بها، إلا أنها مع ذلك كانت مشدودة الأعصاب حزينة مهمومة ، حتى أنها قصدت إلى سريرها واستسلمت للنوم والأحلام والمجلة بين يديها

وكان جدها بعد وفاة أبويها لا يتناول طعامه إلا إلى جانبها، فلما لم تحضر إلى المائدة وعلم أنها نائمة دهش لأنها كانت لا تذهب إلى سريرها عادة إلا بعد تناول طعام العشاء بساعة أو ساعتين، فهم إلى غرفتها، ولشد ما كانت دهشته حين رآها فى نومها تتنهد وتبكى. حتى إذا تناول المجلة التى أفلتت من يديها وجد من بين صحفها شرحاً ضافياً عن زاهر وعن ذلك الاحتفال ... ولكنه فى صباح اليوم التالى كتم عنها ما وقف عليه وأذن لها بالذهاب فى عربته إلى حديقة الأسماك لتروح عن نفسها قليلا

ولم يكن ذلك اليوم يوم أحد أو جمعة يقبل الناس فيهما على هذه الحديقة؛ وكان ذهابها عند الصباح الذى ينصرفون فيه إلى أعمالهم، فأخذت فتنة تتمشى رويداً رويداً فى ممرج الحديقة المكسوة بالعشب والشمس تعكس أشعتها على ما غشيه من الندى فتحيله قطعاً منتثرة من ماس متألق وهاج

ولما أحست التعب خطر لها أن تستريح قليلاً فى إحدى حجرات (الجبلاية) وكانت كلما خطت خطوة تسمع صوت تلاوة غريبة يقترب منها أو تقترب منه ، حتى إذا وقفت عند الحجرة التى ينبعث منها الصوت شعرت بالغبطة تغمرها والنشوة تتمشى فى جسمها، لأنه كان قريب الشبه من صوت حبيبها . وكان يتمشى وظهره إليها، فلما دار ليعود وهو يقول: جولييت — سمع خارج الحجرة صوتاً ناعماً يقول له: هأنذى يا روميو . وعندذلك أسرع نحو فجوة الحجرة فاذا به إلى جانبها. فكانت مفاجأة سارة لم تخطر بباله ولا ببالها

— أنت هنا ؟

— الصدفة هى التى جاءت بى وهى وحدها التى شاءت أن أجتمع بمن ضنّ علينا حتى بالسؤال

— لك أن تعتبى يافتنة لولا ما أنا غريق فيه..

— من الحب .. طبعاً وقد هيأت لك الأقدار من ستخاصرها وتتناجيان . . . وعند ذلك انفجر زاهر بالضحك . ولكنه شعر بما أخذ يدبّ فى نفسها من عوامل الغيرة فأسرع إليها وضمها إلى صدره قائلا :

ثق أننى لن أكون فى ذلك اليوم إلا وحدى . وستكون تلك التى يتمثلها خيالك كمية مهملة بإزائى. آه لو تعلمين كم أنا شقىّ بهذا الدور الذى رزأنى به عبد الرحيم افندى . وما نعمت بالحبّ ولا شقيت بالهجر. إسمعى يافتنة، هذه تذكرة لبنوار يمين رقم ٣ أرجو أن تنوبى عنى فى تقديمها لجدك هدية منى . وعدينى أنك تحضرين فى تلك الليلة معه، فكم أكون ناعماً سعيداً . وإنى لأسألك أيضاً طلباً آخر أنا فى شدة الحاجة إليه . إن موعد الحفلة لم يبق عليه غير يومين، فافتحى لى صدرك وامنحينى فيهما رضاك لأن ذلك مما يشجعنى ويساعدنى فى مهمتى .. يومين فقط

— بل العمر كله يا زاهر

وعند ذلك غابا عن الوجود فى قبلة خافقة حارة ثم خرجا

* * *

وجاء اليوم الموعود والناس يفدون إلى الدار أفواجا أفواجا وهم يلغطون ويضجون ولا حديث لهم إلا هذه الفرقة المثقفة الجريئة التى خرجت على التقاليد ووهبت نفسها وجهودها للفن . وكانت فتنة فى تلك الفترة خائرة القوى مضطربة مشفقة عليه فى هذا الموقف الخطير الرهيب حتى إنها أخذت تتلو سورة الفلق سبع مرات . وما كان ذلك ليخفى على جدها وهو يتأملها وينظر من طرف خفى إلى حركاتها وقلقها . فلما خفت نور الصالة وانتهت الدقات الثلاث المعهودة ارتفع الستار رويدا رويدا بين موجات صاخبة من التهليل والتصفيق

وأقبل روميو على المسرح ودوّى المكان بالهتاف فانتهزت هذه الفرصة وانصراف الحاضرين إلى الممثل ورفعت نقابها عن وجهها لحظة ثم أعادته، حتى إذا ما أبصرها انطلق فى تمثيله فخما رائعا جبارا ووجهه مشرق بالحب ونفسه جياشة بالشعور كأنه كان يمثل نفسه ويصور غرامه وأشجانه ومواجعه

وفى الفترة التى قبل الفصل الأخير قدمت إليه باقة بديعة التنسيق كانت هدية من جدها . حتى إذا انسدل الستار وانتهى التمثيل وضج الناس وعلت الأصوات بالاعجاب والاستحسان كان هو فى البنوار عند جدها يقبل يديه ويشكره . وعند ذلك اغرورقت عينا هذا الشيخ المتهالك الفانى فأخذ يده إلى يد فتنة قائلا فى صوت متهدج مختنق :

هذى هى جولييت أقدمها أنا إليك مرة أخرى يا ولدى حتى لا أكون قاسياً كشكسبير !

محمود منير

بيت الله الحرام مهدت السبيل إليه

﴿ شركة مصر للملاحة البحرية ﴾

ببواخرها الفاخرة و فنادقها الفخمة

ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا

جميع الاستعلامات من شركة مصر الملاحة البحرية

رقم ١٥١ شارع عماد الدين — القاهرة

القاضي السعيد

للفيلسوف الروسي تولستوي

بقلم الأديب السيد صلاح الدين المنجد

قام المليك ثملاً من الرقص الفاتن على أنغام المزامير يرنو إلى جمال الراقصات الباسم ... ويصغي إلى أحاديث الندامى ترن في مسامعه مرجمة أنباء الساحر الرهيب، ذي القوة الخارقة والسحر العجيب، وأقاصيص ذلك القاضي السعيد الفياضة بالغرائب، المملوءة بالأعاجيب ... !

وأيقظه نسيم السحر المرتعش، فنادى غلامه وقال: سمعت في العشية من صحبك أن في أقصى المملكة قاضياً واسع الحيلة، عظيم الذكاء، يعرف الكاذب إذا رآه من الصادق، وله في ذلك نكات حلوة وطرائف طلية .. ولقد هفت نفسي إلى رؤيته فهيئ لي يا غلام جوادي، وأحضر لي زادي، وائت لي بلباس لا يعرفني به أحد من رعيتي، كي أذهب فأرى صدقه من تدجيله

وبعد ساعة ... انطلق الملك يسري ... بين شعف الجبال وأحضانها، وهو يحث السير ويغذه؛ حتى إذا ما وصل إلى بلد القاضي — وقد ارتفعت الشمس وقاظ النهار — لقيه رجل قد قطعت ساقاه وتهشم وجهه وجحظت عيناه، فاقترب منه، وهو يتكئ على عصوين أسندهما إلى إبطيه ... وأخذ يقبل أقدامه ويطلب إحسانه. فتصدق الملك عليه، وهمز حصانه وسار على مهله

وفرح البائس إذ ضحكت له المنى ولكنه لحق بالمليك وأمسك بأثوابه لايدعها، فغضب الملك وثار وقال له:

— ما شأنك أيها الرجل، وماذا تريد؟ طلبت فأعطيناك ... وشكوت فرحمناك ... !

قال الرجل بصوت يشيع فيه الحزن واللوعة:

— أوصلني يا سيدي إلى ساحة المدينة. فأنا بائس عاجز وأخاف أن تطأني الجمال بأقدامها إذ تمشي مشيها الوئيد ... أوصلني إليها يا سيدي والله يجزيك أحسن الجزاء

ورق قلب الملك له وأشفق عليه. فحمله بين يديه وأردفه. ثم انطلقا حتى أتيا ساحة المدينة الكبرى. قال الملك آنذاك:

— ها هي ذي ساحة المدينة أيها الرجل، فاهبط آمناً. !

قال الرجل:

— وي. هذا جزائي فلم تريد اغتصابه مني؟ أهذا جزاء من يعطف عليك ويشفق؟ باللوقاحة! ويل لك من العذاب الذي سيصيبك! هيا. هيا. دع الحصان وامض إلى سبيلك. وإن لم تفعل، فخير لك ولي أن نذهب إلى القاضي السعيد فنسأله، وهناك يظهر الحق ويزهق الباطل. !

وشده الملك. وعجب من هذا المحتال البائس. ثم ثار وغضب، وأرغى وأزبد، والتف حوله أهل

المدينة ، فساقوهما إلى القاضي ليحكم بينهما

وأتيا القاضي يجرّان وراءهما الناس ، وقد جاؤوا ليتسمعوا إلى حكمه. واستوى القاضي على كرسي مزين بالذهب المتوهج ، وبدأ ينادي المتخاصمين فرداً فرداً

وجيء بعالم أصلع الرأس ، كث اللحية ، حمارى الأذنين[1] وإلى جانبه قروى رث الهيئة ، ممزق الأثواب ، على وجهه أمارات النباوة ، كانا يختصمان على امرأة حسناء على وجهها سحر وطلاوة ... هذا يدعي أنها خليلته ، وذاك يقول إنها حليلته..!

واستغرق القاضي في صمت عميق... ثم قال :

— دعا حسناء كما عندي وتعاليا إليّ غداً . !

وتقدم جزار إلى جانب زيات . وكان الجزار يرتدي ثوباً مليئاً دماً ، وكان الزيات يرتدي لباساً زين ببقع الزيت الحية . قال الجزار :

— لقد اشتريت من هذا الرجل يامولاي زيتاً ثم عمدت إلى قميصي فأخبأته تحت جيبه[2] . ولكنه هجم عليّ ، وانتزعه مني . فجئنا إليك يامولاي ... أنا أمسك بيدي دراهمي وهو يمسك بتلابيبي لئلا أفر ... ولكن الدراهم لي ... وما هو إلا سارق أثيم ..!

قال الزيات :

— كذب ما قاله ياسيدي وبهتان ... لقد جاء إليّ ليبتاع من زيتي ، فملأت له وعاءه ، فلما أراد الانصراف طلب مني أن أبدل له قطعة ذهبية بقطع فضية ، فرحت أعطيه الدراهم ... ولكنه فرّ بها يا مولاي ، فلحقت به .. وأحضرته إليك .. !

واستغرق القاضي في صمت عميق. ثم قال :

— دعا الدراهم عندي وتعاليا إليّ غداً ..!

وغودي الملك والسائل . قال الملك :

— أنا تاجر ياسيدي ، وهذا سائل لقيني وأنا في طرف المدينة فرثيت له وأشفقت عليه ، ثم أعطيته ما يخفف من ألمه ويزيد في فرحه .. فلما انطلقت إلى ما أنا ماض من أجله ، لحق بي وطلب أن أوصله الساحة الكبرى . فأردفته . فلما كنا في الساحة الكبرى ، طلبت إليه أن يتركني فأبى ، وقال هذا حصاني جئت تنتزعه مني . فالتف حولنا الناس وساقونا إليك . هذه قصتي يامولاي فاحكم بما تريد ! ...

قال السائل :

— يا للكذب يا مولاي . لئن كذب وافتري ، فما أنا إلا صادق أمين . . . كنت أجتاز المدينة ومعي الحصان فرأيته في بعض الطريق . . . فطلب مني أن أوصله الساحة الكبرى فقد أنهكه السير الطويل . فلما أتيت به الساحة قال هذا حصاني . . . فاحكم يا مولاي أيدك الله وأطال بقاءك !

وفكر القاضي وقدّر ... ثم قال :

— سأعرف الكاذب من الصادق . . . دعا

---

(١) حمارى الأذنين أي أن أذنيه كأذني الحمار . ويقال أيضا فيلي الأذنين . ذكر المعري في رسالة غفرانه ص ٤٧ ما يلي : « كان ببغداد رجل كبير الرأس فيلي الأذنين ، اسمه فاذوه ... الخ » وقد قسنا الأولى على الثانية

(٢) جيب القميص طوقه . أي صدره . وهذا المعنى هو خلاف ما هو شائع عن معنى هذه الكلمة

الحصان لدىّ ، وارجعا إلىّ غداً ...

وتفرّق الناس ، ومضى كل إلى سبيله ، وذهب الملك يفكر فى هذا القاضى الذى سمّاه الناس « بالسعيد »

* * *

أقبل الليل ، فجلس الملك يفكر فى أمر ذلك البائس المسكين ويتذكره ، فملأ صوته المضطرب سمعه وفؤاده ، وهو يتساءل عن جزائه وكيف يكون. فلما أضناه التفكير أسلم نفسه للكرى . فنام نوماً عميقاً ، رأى فيه من الأطياف ما لا يحصر ، ومن الأشباح المرعبة ما لا يحد . وضحك النهار فاستيقظ الملك ... وأخذ يرتدى أثوابه . ثم مضى إلى المدينة ليطوف في أسواقها ... فلما أجاز ساحة الحى وجد غريمه يتدحرج نحو دار القاضى

وكان الناس يأتون زرافات زرافات ، فقد أعجبوا بالقاضى فغدت نفوسهم فى شوق ملح لسكل ما يقول . وجاء المتخاصمون فتقدم العالم والقروى. فنظر القاضى إليهما وقال :

— أيها العالم ! إنها زوجتك فخذها وامض بها إلى دارك . . . أما أنت أيها القروي ، فجزاؤك خمسون جلدة تنالها فى الساحة الكبرى على ملأ من الناس ! ..

وانصرف العالم وزوجته ، وأخذ القروى ليجلد

وجىء بالجزار وبائع الزيت ، فقال القاضى :

— أيها الجزار ! ها هي ذى دراهمك فخذها . أما أنت . . . فجزاؤك خمسون جلدة تنالها فى وضح النهار على ملأ من الناس ! ...

وأخذ الجزار دراهمه . ومضوا بالزيات ليجلدوه

وتقدم الملك والسائل . فقال القاضى للملك المتنكر :

— هل تعرف حصانك جيداً ؟

— نعم يا مولاى !

— وأنت أيها السائل ؟

— وأنا أيضاً يا سيدى !

— اتبعانى إذن ...

وانطلق القاضى بهما إلى الاصطبل وقد امتلأ بالجياد . فقال للملك : دلنى على حصانك ... فدله الملك . ثم أخرجه وأدخل السائل ... فدله عليه أيضاً . فلما خرج القاضى قال : خذ حصانك أيها التاجر فهو لك . أما أنت فستجلد خمسين جلدة فى الساحة الكبرى

وهم القاضى بالانصراف ... فتبعه الملك وقال له:

— أريد يامولاى أن أعلم كيف استطعت أن تعرف أن المرأة كانت للعالم ، وأن الدراهم كانت للجزار ... وأن الحصان كان لى ... فلقد حار عقلى فى فهم ذلك ...!

قال القاضى :

— أما المرأة ، فقد أتيت بها إلى دارى ، وقلت لها ضعى فى هذه المحبرة مداداً . فأخذت الدواة فنظفتها ، ثم ملأتها مداداً . فعلمت أنها تعلم ذلك من قبل ، والدواة لا توجد إلا عند العالم . فحكمت بأنها امرأة العالم وليست خليلة القروي . أما الدراهم فقد وضعتها فى إناء ملىء ماء ، وقلت لنفسى ، إن كانت لبائع الزيت ، فلا بد أن تطفو على صفحة الماء

قطرات من الزيت جاءت إليها من يديه . ولكن الماء بقى صافياً ، فعلمت أن الدراهم ليست لبائع الزيت وإنما هى للجزار .

وصمت القاضى قليلا .. فلما طال صمته قال الملك :

— والحصان ياسيدى ؟

قال القاضى :

لقد قلبت الأمر بين يدى . فلم أجد حيلة أنفع من أن تدلانى على الحصان ، فمرفته أنت كما عرفه السائل . . . ولكنى رأيت الحصان قد أدار وجهه نحوك . ورفع أذنيه عند ما دنوت منه . فلما جاء السائل أرخى أذنيه ورفع إحدى رجليه يريد رفسه ، فعلمت أن الحصان لك

وابتسم الملك ضاحكا ... ثم تقدم من القاضى فقال له :

— أيها القاضى ! نعم العدل بك عيناً . . . لست بتاجر ، ولكننى الملك .. !

ودهش القاضى ... وارتجف رهبة . ثم انحنى وقال :

— عفواً يامولاى ... أنا عبدك

— قم أيها القاضى وسل ... !

— إن ثناءك على لمكافأة لى يامولاى . . .

وانحنى ليقبل قدميه .

— قم . . . قم أيها القاضى السعيد . . . فلقد صدقت بك ... وآمنت ... لقد صدقت وآمنت ... ومنذ الغد ستكون لى وزيراً .. !

صنوع الدين المنجد

الفصول والغايات

للفيلسوف الشاعر الكاتب

ابى العلاء المعرى

طرفة من روائع الأدب العربى فى طريقته ، وفى أسلوبه ، وفى معانيه . وهو الذى قال فيه ناقدو أبى العلاء إنه عارض به القرآن . ظل طول هذه القرون مفقوداً حتى طبع لأول مرة فى القاهرة وصدر منذ قليل

صححه وشرحه وطبعه الأستاذ

محمود حسن زناتى

ثمنه ثلاثون قرشاً غير أجرة البريد

ويطلب بالجملة من إدارة مجلة الرسالة

ويباع فى جميع المكاتب الشهيرة

رفائيل

لشاعر الحب والجمال لامرتين

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة « الرسالة »

الثمن ١٢ قرشاً

حاجي بابا الإصفهاني

لِلكاتب الانجليزي "جيمز موير"
بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

الفصل الثالث عشر

حاجي بابا يسافر الى مشهد

عند ما خرجنا من مشهد نظرت إليها ورفعت وجهي إلى السماء ودعوت الله أن ينزل غضبه على تلك المدينة ، ولم يسمعني وأنا أدعو هذا الدعاء غير الدرويش صفر ، وقد كان يشاركني شعوري نحوها . ولكن لو أن رجلاً آخر سمعني أفوه به ، لكان هذا اليوم أسوأ يوم في حياتي . وقال لي الدرويش : « أنت لا تزال صغيراً يا بنيّ وستعاني في الحياة آلاماً كثيرة قبل أن تستفيد من التجاريب ماهو ضروري لك في الحياة . لا تشك من الصدمة الأولى فربما كان في شدتها وقاية لك من صدمات كثيرة ، وستستطيع في المستقبل أن تتجنب المحتسب حتى ولو كان متنكراً في ثياب امرأة ، ولكن رجلا في مثل عمري (وأشار إلى الشيب في لحيته) يؤلمه أشد الألم بعد ما استفاد من التجاريب أن يضطر إلى مغادرة مدينته ويعاود الأسفار خوفاً من حلول نكبة به »

قلت : « ولكن كان في وسعك أن تبقى في مشهد غير مبال بالعلماء مادمت محافظاً على الصلاة والصوم »

فقال الدرويش : « هذا صحيح ، ولكن شهر رمضان قد اقترب وهم يراقبونني فيه أشد مراقبة لأنهم يتربصون بي ، ولست أستطيع ولا أريد أن أصوم لأن التدخين ضروري عندي ، ولذلك أحب الأسفار في هذا الشهر لأن الافطار فيه مسموح به في الدين ، وقد يكون في الامكان أن أرائيهم كما فعلت ذلك مراراً وأتظاهر بالصوم وأفطر في السر ولكن ذلك يكون صعباً على من بلغ من الشهرة ما بلغته الآن وأصبح من الأمور العادية أن يتردد لزيارته عشرات من الناس في كل ساعة من ساعات النهار ليتبركوا به »

وصلنا إلى مدينة سليمان دون أن يحدث حادث هام سوي أنني في اليوم الأخير من مسافة السفر ساعدت صاحبي على خاطر على نقل متاجره المحمولة على البغال فجرح ظهري في الموضع الذي أصبت به يوم حدوث الحادث الذي تركت من أجله السقاية

وكان ألمي شديداً فلم أستطع الاستمرار في السفر مع القافلة وصممت على البقاء حيث كنت حتى يتم لي الشفاء ، وكان قد زال خطر التركمان لابتعاد هذا المكان عن جهات هجومهم ، ولم أعد في حاجة إلى حماية القافلة . وقد كان يجمل بالدرويش صفر أن يبقى معي ولكن شوقه كان شديداً إلى نبيذ العاصمة وملاهيها فتركني واستمر مع القافلة

كان المكان الذي تخلفت فيه عن القافلة عند المقابر ، فذهبت إليها وأعلنت قدومي كعادة الدراويش بصيحات مزعجة صحتها بهذا النداء : « هاك هو ! هاك هو ! » أي الله أكبر الله أكبر ، واستعددت لابداء ضروب الرياء والخداع إذا قابلت أي إنسان وفقاً للتعليمات التي تلقيتها من الدراويش

وفى أثناء مرضى وإقامتى بالمقابر زارنى عدد من النساء فكتبت أحجبة وأخذت منهن مقادير وافرة من الفاكهة واللبن والعسل . ولما اشتد الجرح اضطررت إلى السؤال عما إذا كان فى مدينة سليمان من يستطيع علاجى؛ ولم يكن فى تلك المدينة من يعرف شيئاً من شئون الطب غير الحلاق والبيطار، فالحلاقون يعرفون الحجامة وخلع الأسنان ، وأما البيطريون فيعرفون أمراض الخيل ومنها ما يشترك فيه الناس فيستشارون فى الجراح وجبر العظام وغير ذلك

وكان فى المدينة غير حلاقها وبيطارها امرأة عجوز تدعى لعلاج مايعجزان عنه من الأمراض. وقد استدعيت كلاً من هؤلاء الثلاثة فاتفقت كلمتهم على أن لا وسيلة للعلاج غير الكى بالنار . ولما كان البيطار أكثرهم مراناً على أداء هذه العملية فقد اخترته لاجرائها، فجاء بمقدار من الفحم وبحديدتين وأوقد ناره وأحمى الحديدتين حتى احمر لونهما ثم كوانى فى ثلاثة عشر موضعاً من ظهري

ومضت مدة قبل أن تشفى الجراح الأولى والجراح التى أنشأها الكى الذى لم يكن شفائى بسببه بل بسبب الراحة الطويلة

ولما شفيت عزمت على أن أستأنف رحلتى إلى طهران التى لم أشأ أن يكون المرض ملازماً فى بدء عهدى بها، ودخلت المدينة فى ساعة الظهيرة وأعلنت قدومى إليها بالنداء المعتاد فى وسط السوق فاجتمعت حولى الجموع، فلما رأيت كثرة عددهم حدثتنى نفسي بأن أقص عليهم قصة أستدر بها جيوبهم كما تعلمت من أحد الدراويش وراجعت ذاكرتى فتذكرت قصة جميلة وبدأت أسردها عليهم وأعينهم مرفوعة وأفواههم مفتوحة ، فقلت :

« كان فى عهد هرون الرشيد رجل حلاق بمدينة بغداد يدعى « على السقا » وقد اشتهر هذا الرجل بخفة يده وإتقانه صناعته وسرعته حتى إنه كان يحلق الرأس واللحية فى طرفة عين دون أن يسيل قطرة من الدم . وكان كل وجهاء بغداد يحلقون عنده، وقد وصل به الكبر والغرور إلى حد الامتناع عن الحلاقة لمن لم تكن لديه رتبة أو لقب وكان يشترى الأخشاب ويبيعها لزبائنه .

وفى يوم من الأيام جاءه أحد البياعة ومعه أخشاب على ظهر حمار فاتفق معه الحلاق على مبلغ معين فى مقابل (كل ما على ظهر حماره) فلما سلم البائع تلك الأخشاب طالبه الحلاق بالسرج الذى على ظهر الحمار وبالبرذعة لأن الاتفاق كان يشمل « كل ماعلى ظهر الحمار» فدهش البائع وقال: « كيف؟ هل سمعت فى حياتك صفقة مثل هذه ؟ إن هذا مستحيل »

وبعد مشادة حدثت بينهما أخذ الحلاق السرج والبرذعة والخشب وترك البائع يفعل ما بداله، فذهب إلى القاضى ، وكان القاضى من أصحاب الحلاق فحكم له، فاستأنف البائع الحكم إلى قاض آخر أخذ كذلك بنص الاتفاق وصادق على الحكم الأول فلم يسع البائع المسكين إلا أن يرفع أمره إلى المفتى نفسه، فلما لم ينصفه أيضاً كتب شكواه ووقف فى طريق الخليفة وهو ذاهب إلى المسجد فى يوم الجمعة .

وكان الخليفة مشهوراً بعنايته بقراءة العرائض بالمسجد بعد الصلاة والفصل فيما يستحق النظر منها .

ولم تمض ساعة بعد الصلاة حتى دعى بائع الخشب إلى حضرة الخليفة فدخل وقبل الأرض ودعا له، فقال الخليفة: « لقد قرأت شكواك وفهمتها

وإن الألفاظ فى جانب خصمك والعدالة فى جانبك . والقانون يجب أن يحدد بالألفاظ؛ والاتفاقيات وهى قوانين الخصوم يجب أن تحدد بالألفاظ كذلك. ولهذا السبب يجب أن ينفذ الاتفاق بألفاظه وإلا لما كانت له قيمة ولا أمكن الاحتفاظ بالثقة بين الناس، لذلك سيأخذ الحلاق البرذعة والسرج والخشب ولكن..»

ثم استدعى البائع وهمس فى أذنه بكلمات فبدت على وجهه علائم الرضى وخرج وهو مسرور »

هنا بدا الاهتمام على وجوه السامعين فسكتُ وهم ينتظرون أن أتكلم. ولما طال سكوتى طالبونى باتمام الحديث فقلت لهم : إننى لا أتم القصة إلا إذا دفع لى كل منهم قطعة من النقود . فدفعوها وقلت: « قال الخليفة همساً لبائع الأخشاب : « إذهب إلى الحلاق واتبع معه الطريقة التى سأذكرها لك ومتى رجع الأمر إلىّ فانى سأنصفك » ثم علمه الطريقة فخرج البائع راضياً

وبعد أيام ذهب إلى الحلاق بحالة من الود تدل على أنه لم يكن بينهما أى خلاف وعلى أنه رضى واقتنع بحكم القضاء فى النزاع الذى كان بينهما

واتفق البائع مع الحلاق على أن يحلق له ولزميله الذى سيأتى بعد قليل فى مقابل مبلغ تراضيا عليه، فوافق الحلاق وبدأ يحلق للبائع، ثم سأله عن زميله فذهب وعاد سائقاً حماره وقال : إن هذا هو الزميل الذى يجب أن يحلق له وفقاً للاتفاق

اغتاظ الحلاق وامتنع عن الوفاء بتعهده قائلا : إن هذه خدعة . وقال : « أليس يكفيك أن أضع يدى على رأسك للقذر حتى أحلق لحمارك أيضاً ؟ إننى لم أحلق قط لأمثالك وما حلقت لك إلا لمصالحتك إياى بعد القضية التى كانت بيننا . اذهب من هنا وإلا أذقتك الأمرّين »

فذهب البائع مغتاظاً إلى الخليفة ورفع أمره إليه ، فأمر الخليفة باحضار الحلاق وقال له فى جمع حاشد : « ألم تتفق معه على أن تحلق له ولزميله ؟ »

قال الحلاق : « نعم ولكن هل فى الدنيا من يزامل حماراً ؟ »

قال الخليفة : « وهل فى الدنيا من يشترى خشباً وبرذعة ؟ إحلق للحمار أمام هذا الجمع تنفيذاً لا تفاقك وإلا أودعتك السجن »

فاضطر الحلاق إلى الاذعان ، وأمر الخليفة بأن يؤتى له بالمواسى وبالصابون والماء ، وبدأ الحلاق يغسل شعر الحمار ويحلق له بحضور الخليفة وحاشيته

وكان الناس يسرون به ويضحكون منه ، ثم صار كل أهل بغداد يتحدثون بهذه القصة الدالة على ذكاء الخليفة وعدالته

الفصل الرابع عشر

الرجل الذى قابله جراحى بابا

تركت مدينة سليمان وأنا مسرور وقد شفيت جراحى وكنت لا أزال صغير السن جميلا وكان معى عشرون « طومانا » ادخرتها فى مشهد

وكنت إلى ذلك العهد قد جربت بعض التجاريب التى تنفعنى فى الحياة وعزمت على أن أنزع ثياب الدراويش بمجرد وصولى إلى طهران وأن ألبس ثياباً جميلة وأعيش معيشة راقية

وكنت فى أثناء الطريق أنشد بأعلى صوتى قصائد المجنون فى ليلى فقابلنى أحد السماة ونشأت بينى وبينه مودة فتحادثنا وقدم لى بعض ما كان معه من

القافلة فقبلت مسروراً لأن الحر كان شديداً فى ذلك اليوم .

وكنا نسير على شاطىء نهر وبالقرب منا مزارع قمح فنزع الساعى لجام الفرس وتركه يأكل من القمح الجديد ثم أخرج من جرابه طعاماً ودعانى إلى مشاركته فيه وكان هذا الطعام أرزاً بارداً وخبزاً فأكلنا بشهوة قوية ، ثم أخرج من هذا الجراب الذى فيه حذاؤه فجلاً وبصلاً فأتممنا غداءنا وغسلنا أيدينا فى النهر . ثم قدم لى لفافة من التبغ وأخذ كل منا يسائل الآخر عن رحلاته السالفة ، وعرف من شكل ثيابى أننى درويش ، فسألنى عن تاريخ حياتى وقصصته عليه ، ثم قص على تاريخ حياته وقال إنه ساع عند حاكم مدينة « استراباد » وأخبرنى خبراً سرنى وأدهشنى وهو أن عسكر خان شاعر الشاه قد نجا من أسر التركمان ونزل ضيفاً عند هذا الحاكم

ولم أشأ أن أظهر له شيئاً من سروري وأن أخبره بأنى أعرف هذا الشاعر لأن تجربتى فى الحياة دلتنى على أن كتمان السر من الضروريات لمن يريد النجاح . وأخبرنى الساعى بأن الشاعر أرسله إلى طهران برسائل وقال إنه شديد الشوق إلى معرفة ما فيها وإنه لا يعرف القراءة والكتابة وإنه مسرور للقائى لكى أقرأها له ، وأخرج من صدره تلك الرسائل

ولما كانت العادة فى بلاد فارس أن تطوى الرسائل على شكل مثلثات كالأحجبة ولا توضع فى مظاريف بل يكتفى بثنى جزء منها ووضعه بين طياتها بحيث يسهل فتحها وإعادتها إلى ما كانت عليه دون أن يظهر أنها فتحت — فقد سررت مما عرضه على وفتحت الرسائل لأعرف أخبار صاحبى الشاعر

وكانت أول رسالة منها إلى الشاه الذى دعاه شاعره باسم ملك الملوك وضمن رسالته إليه وصف الآلام التى تكبدها من معاملة التركمان ومن الجوع والظمأ والذل ، قائلا : إن ذلك كله لم يكن شيئاً يذكر بجانب ألمه للبعد عن جلالته وحرمانه التشرف بخدمته . وقال : إن حياته تستمد النور والحرارة من رحمة الشاه ومن قربه ، وإن أكبر أمل لديه هو أن يعاد إلى منصبه الذى كان غيابه عنه على الرغم منه وإنه يريد أن يعود إلى التغريد فى قصره كما يتغنى البلبل للورد

وكانت الرسالة الثانية لرئيس الوزارة الشرس الأخلاق المشوه الخلقة ، ولكن الشاعر وصفه بأنه كوكب ساطع بين نجوم السماء ، وبأنه روح البلاد وعمار مجدها . وكانت الرسالة الثالثة بهذا المعنى لعدوه القديم وزير المالية

أما باقى الرسائل فمنها واحدة لزوجته يتكلم فيها عن شئونهما الداخلية وعن نواياه فى المستقبل ويوصيها بأن تقتصد فى ملابسها وأن تعنى برقابة الخدم والعبيد وبأن تعد له ثياباً جديدة . ومن هذه الرسائل أيضاً رسالة إلى مربى أبنائه يحييه فيها ويرجو أن يكون قد علمهم الشعائر والتقاليد ومبادىء الدين وعودهم المواظبة على الصلاة فى مواعيدها ومرنهم على استعمال الرماح وإصابة الهدف وهم راكضون على ظهور الجياد

وكانت الرسالة الأخيرة إلى وكيل أعماله وهو يوصيه فيها بالاقتصاد الشديد وأن يذهب كل يوم إلى قصر رئيس الوزارة فيطيل من الدعاء له وشكره لأنه لولا عنايته وهيبته فى البلاد لما أطلق التركمان أسيرهم ، ويوصيه أيضاً بأن يكون شديد العناية بأعماله

وبأن يصحب زوجته فى عدواتها وروحاتها وبأن يكون مطيعاً لما تأمره به وبأن يتشدد فى مراقبة العبيد والخدم عموماً ويخص الرقيق جوهراً فاذا رابته منه علاقة باحدى الجوارى جلده وجلدها معه . وأمره بمنع العجائز اللواتى يخشى منهن دس الدسائس — وبخاصة اليهوديات — من الدخول منزله . ويأمره أخيراً بأن يدفع جائزة لمن يحمل هذه الرسالة لتكون بمثابة البشرى لنجاته من الأسر .

طويت هذه الرسائل وأعدتها إلى الساعى الذى ظهر على وجهه البشر لما جاء فى الرسالة الأخيرة ، وقال إنه تعب كثيراً وخشى أن يأتى متأخراً فصار يقضى أيامه ولياليه ركضاً بجواده حتى أتعبه واضطر إلى تركه فى إحدى البلاد التى مرّ بها على أن يرسل إليه بعد شفائه واغتصب الجواد الذى هو راكب عليه الآن من أحد الفلاحين .

وبعد أن سرنا مسافة أخرى أدرك صاحبي التعب فربط جواده ونام ونظرت إليه وهو مستلق على الحشيش وحدثتنى نفسى بأن أسرق منه رسالة الشاعر إلى وكيله وأذهب بها . ولما كنت عارفاً كل المعرفة بحياة الشاعر وزاملته فى الأسر مدة طويلة فانى بغير شك أولى من هذا الساعى بأداء رسالته ، ولو كنت مع الشاعر عند ما نجا ما أرسل غيرى ليؤديها وأنا أحق كذلك بالجائزة التى تدفع من أموال رجل خدمته وكنت مستعداً للتضحية من أجله بالشىء الكثير لو سنحت لى فرصة لهذه التضحية . أما الجواد فليس حق الساعى فيه أكبر من حق

وفى غير مشقة كبيرة أخذت تلك الرسالة وركبت الجواد وركضت به جاعلا كل همى أن أسرع حتى لا يلحق بى الساعى إما على ظهر جواده الذى قال إنه سيرسل إليه وإما على ظهر جواد آخر يغتصبه وقلت فى نفسى: إننى إذا سبقته بمسيرة يوم فانى آمن من شره، وعزمت على أن أبيع الجواد ساعة وصولى إلى طهران — وعلى أن أبدل ثيابى فى الحال فلا يجد الساعى إذا وصل أى دليل ضدى ولا يجد من يصدقه إذا زعم أنى كنت درويشاً وأنى سرقت منه رسائل وجواداً . بل إنه من الصعب أن يعرفنى بعد إبدال ثيابى فى تلك المدينة

وحصرت تفكيري عند ما وصلت إلى المدينة فى الكيفية التى أقابل بها أهل الشاعر وفى الكلام الذى أقوله لهم

الفصل الخامس عشر

مراحى بابا فى بيت الشاعر

دخلت المدينة فى ساعة الصباح من باب الشاه عبد العظيم وكان هذا الباب قد فتح لوقته وحينه . وذهبت تواً إلى سوق الخيل وهو أقرب مكان إلى هذا السوق وهو يعقد يومياً لبيع الخيل

وكنت أعتقد أن جوادى حسن جداً وأنه سيباع بثمن غال لأن تجربتى إياه فى أثناء الطريق دلتنى على أنه ليس به عيب : ولكن تاجراً من تجار الخيل فى ذلك السوق أكد لى أنه ملىء بالعيوب وأننى أكون سعيد الحظ إذا تخلصت منه فى مقابل أى مبلغ من المال . وعرض على خمسة طومانات ثمناً . فدهشت لأنى ما كنت أنتظر بعد وصفه المتقدم أن يعرض كل هذا الثمن

ودهش التاجر أيضاً لتسليمى بقوله وقبولى أول مبلغ عرضه .

ولما طلبت إليه أن ينقدنى المال أخذ الجواد

ودفع لى نصف الثمن وعرض على حماراً بالنصف الباقى فأبيت، فقال إنه سيدفع لى باقى الثمن عند ما أقابله لأول مرة . ولم يكن لدى متسع من الوقت للمساومة . وكان غرضى الأول هو التخلص من الجواد فتركته له وأخذت ما دفعه وكتبت اسمه عندى واتعدت معه على المكان والزمان اللذين أقابله فيهما لآخذ الباقى من ثمن جوادى وأنا أنوى ألا أعود إلى مقابلته وهو ينوى ألا يدفع لى شيئاً

ثم ذهبت إلى سوق الثياب فاشتريت (قفطاناً وجبة وعباءة سوداء) ولبست ذلك فى نفس السوق وخلعت ما كان على من ثياب الدراويش. وقد كلفتنى هذه الثياب الجديدة مبلغاً كبيراً لأنى اضطررت إلى شراء أشياء أخرى من مستلزمات هذا الزى كالعمامة والحزام ، ثم سألت عن منزل الشاعر

كان هذا المنزل فى حى من المدينة محوط بأشجار الرمان يدل شكله دلالة واضحة على بعد صاحبه

كان أحد مصراعى بابه مفتوحا والآخر مغلقا وظهر لى أن عدد المقيمين فيه قليل جداً وأن الجائزة ستكون قليلة أو أننى لن أنالها

صعدت السلم حتى وصلت إلى الطبقة الثانية فوجدت رجلا فى سن الخمسين يدخن فى الغليون وظهر لى أنه الرجل الذى كنت أريد مقابلته وهو وكيل أعمال الشاعر وناظر زراعته

وصحت عند ما رأيته : « بشرى ! عسكر خان سيأتى »

فنظر لى الرجل نظرة اندهاش وقال : « ماذا تعنى ؟ أى خانٍ ومتى ومن أين ؟ » فقلت له : إنى رسول من قبله. وقدمت له الخطاب فبدا على الرجل فرح متصنع وحزن حقيقى ودهشة وقال لى : « ولكن هل أنت واثق من أنه لا يزال على قيد الحياة ؟ »

قلت : « لاشك فى ذلك وأنا آت من عنده وسيأتيكم فى الغد رسول آخر من لدنه وسيكون معه رسائل أخرى باسم الملك والوزراء وغيرهم »

فقال الرجل مخاطباً نفسه : « هذا عجيب ! هذا مدهش ! ما هذا الخبر الذى وقع على رؤوسنا ؟ أين الذهب ؟ ماذا أفعل ؟ »

ولما ملك الرجل روعه حاول إفهامى سبب اضطرابه فقال : « إن كل إنسان يقول إنه قد مات ويجب أن يكون ميتاً فلقد رأت زوجته فى النوم أن ضرسها سقط من فمها وأنها تتألم لذلك أشد الألم . وهذا أكبر دليل على أن زوجها قد مات ... إنه غير حى ويجب ألاَّ يكون حياً »

قلت : « ظن كما تشاء فان الرجل موجود الآن فى استراباد ولن تمضى ستة أيام حتى يصل إلى هذه المدينة ويريكم شخصه

سكت الناظر وظل واجماً لا يعرف بماذا يجيب وقال : « لا يدهشك اضطرابى ودهشتى عند ما علمت بأن سيدى القديم لم يمت ، فان خبر موته لما شاع فى هذه المدينة أخذ الشاه أملاكه وأمواله وأرقاءه وأثاث بيته وأعطى ذلك كله « لخور على ميرزا » وهو أصغر الأمراء من أبناء الشاه ، أما ضيعته فهى الآن مملوكة لرئيس الوزراء ، وأما قصره فهو لميرزا فاضل ، ولم يبق غير هذا المنزل لزوجته التى تزوجت من معلم أبنائه، فقل لى هل لى أن أضطرب من هذا الخبر الذى تزعم أنك تبشرنى به أم لا ؟ »

قلت : « نعم لك أن تضطرب وتحار ، ولكن ماذا يكون من أمر الجائزة التى أشير إليها فى هذا الخطاب ؟ »

فقال الناظر : « لا تنتظر مني أى شيء فأنت لم تأتنى بخبر سار ، ولكن إذا شئت فاصبر حتى يأتى السيد الجديد »

قلت : « إننى سأعود فى يوم آخر وخرجت من المنزل وأنا مستغرق فى تأملاتى

الفصل السادس عشر

حاجى بابا يفكر فى المستقبل ويدخل فى معركة

عزمت على أن أنتظر عودة الشاه وأن أحصل بوساطته على منصب فى الحكومة فأكتسب من هذا الوجه الشريف رزقى ويكون أمامى مجال واسع للترقى والظهور فى ميدان الحياة بغير وسائل الغش والتدليس التى علمتنيها تجاربى السالفة لأننى قد سئمت من الاختلاط بالطبقة الدنيا ومن معاشرة الرعاع وطمحت نفسى إلى الرقى والغنى والجاه ولم أجد فى ضعة أصلى وحقارة نشأتى ما يمنع من وصولى إلى رياسة الوزارة وقلت فى نفسى : « ماذا كان إسماعيل بك تللى (أى الذهبى) أقرب المقربين إلى الشاه ؟ إنه لم يكن إلا فراشاً وضيعاً وليس أكثر منى علماً ولا أفصح لساناً ، وهو قد اشتهر بركوب الخيل ولكنه لو وقع فى أسر التركمان كما وقعت فى أسرهم لاتضحت حقيقة هذه الشهرة وتبين أننى خير منه فى ذلك أيضاً . وقلت : ومن هو وزير المالية الذى يوزع أموال الدولة على أصحاب الشاه ولا ينسى نفسه ؟ إنه ابن بدال وأنا ابن حلاق فليس يفضل أبوه أبى ، وأنا أفضل من معاليه لأنى أعرف القراءة والكتابة ومعاليه لا يعرفها . وهو يأكل ويشرب كما يشاء ويلبس كما يقولون حلة جديدة فى كل يوم ويختار لهوه أجمل النساء ، ولكنه مع ذلك لم ينل نصف كفاياتى ومواهبى وهو كما يلقبه جميع الفارسيين (خور بالتشديد) أى (حمار بتوكيد اللفظ)

اندفعت فى تيار هذه التأملات وأنا فى وسط الطريق المؤدى إلى القصر وظهرى مستند إلى الحائط وقد غاب برأسى حرارة الفكر فرأيت نفسى فى الخيال وقد بلغت ما أرجوه من العظمة وحالت رؤيتى ذلك الجلال دون رؤية المخلوقات الوضيعة التى تسير فى الطريق وأخذ الطريق يزدحم شيئاً فشيئاً فاضطرتنى الجماهير بضجتها وجلبتها إلى الالتفات إليها وأخذت أدفعها عنى بكبرياء ، ونظرت إلى الناس نظرة احتقار وزراية ، ودهش الناس من معاملتى إياهم هذه المعاملة فأخذ البعض يضحك والبعض يسخر ، وعنفنى القليل منهم ، وحسبنى أكثرهم مجنوناً . ولما رجعت إلى نفسى بعد ذلك عذرت من اتهمنى هذه التهمة لأن ثيابى وإن كانت جديدة فهى لا تفضل فى نوعها ثياب أدنى الطبقات ، فابتسمت من ظهورى بمظهر العظمة ، وسرت إلى السوق لأبدل تلك الثياب بثياب أرقى منها لكى أظهر بمظهر يتفق مع الأمل الذى أرجوه

وبينما كنت أشق لنفسى طريقاً بين الزحام إذ رأيت ثلاثة يتشاجرون ورأيت الناس مزدحمين حولهم ففرقت بعضهم لأفض النزاع إن استطعت ولكن لسوء حظى وجدتهم الساعى الذى سرقت منه الجواد ، والتاجر الذى بعته له ، والفلاح وهو صاحبه الأول

قال الفلاح : « هذا جوادى »

وقال الساعى : « هذا سرجى ولجامى »

وقال التاجر : « أنا المالك وحدى »

ورأيت الخطر الذى يحدق بى ففكرت فى النجاة

ولكن نظر التاجر وقع على فصاح : « هذا هو الرجل الذى اشتريت منه الجواد »

ولما رآنى الساعى انقض علىّ كما ينقض الوحش على فريسته ووصفنى بأننى غادر وأننى لص وأننى وغد

قال لى الفلاح : « هات جوادى »

وقال الساعى : « هات سرجى ولجامى »

وقال لى التاجر : « هات مالى »

وقال الجمهور : « خذوه إلى القاضى »

وعبثاً حاولت أن أقنع الجمهور بأننى برىء ، وعبثاً حاولت أن أطلب الرحمة أو أجد من ينصت إلى ما أقول وصرت أصيح مخاطباً الساعى : « لماذا تغضب ؟ هذا سرجك ولجامك سليمين نخذهما »

وقلت للفلاح : « ولماذا تغضب أنت ؟ هذا جوادك لم يمت ولم يصب بسوء فخذه واحمد الله إذ لم يحدث له ما يفجعك به »

وقلت للتاجر : « ولماذا تغضب أنت ؟ إنك لم تدفع لى إلا نصف ثمن الجواد وكنت تريد أن تغشنى وتعطينى حماراً أعرج بالنصف الباقى من الثمن »

وعرضت عليه أن أرد ما أخذته منه ولكنه رفض وأصر على أن أدفع للرجلين الآخرين ما يسكتهما ليصير الجواد ملكه

ولما لم يقبل ما عرضته عليه من أوجه الحلول اتفقت كلمتنا على الذهاب إلى مأمور البوليس وتحكيمه وقد وجدناه فى السوق محاطا بجنوده وفى يده عصاه الطويلة المستعدة لضرب الناس دائماً والتى يعتبر الضرب بها بمثابة الاتهام أو إعلان الشكوى

بدأت أنا برفع الأمر فشرحت القضية على حقيقتها وتمسكت بأن تاجر الخيل كان يريد خداعى وأنه غشنى فى الثمن . وطلبت رد الجواد إلىّ لأرده إلى صاحبه . وقال التاجر دفاعاً عن نفسه إن شكواى باطلة لأن الجواد مسروق ولا يمكن إلزامه بدفع باقى الثمن إلىّ لأنى لست صاحبه ، ولا يمكن أخذ الجواد منه لأنه اشتراه بحسن نية وإنما الشئ الوحيد الممكن فى نظره هو أن أدفع تعويضاً لصاحب الجواد

حار مأمور البوليس حيرة شديدة فى حل هذه المشكلة وقال إنها عويصة وإنه لا يستطيع الفصل فيها . ولذلك فانه يتنحى عن نظرها ويأمر بعرضها على القاضى . ولكن أحد الواقفين وهو رجل أشيب نظر إليه وقال : « لماذا تحار فى قضية بسيطة مثل هذه ؟ إن الخلاف بين حاجى بابا وتاجر الخيل يحل على أن يدفع التاجر باقى ثمن الجواد . ثم يدفع حاجى بابا إلى التاجر أجرة إبقائه عنده وإطعامه فى هذه المدة »

فصاح كل من سمع هذه الفتوى : « تبارك الله ! تبارك الله ! »

وسواء أكان رأيهم خطأ أو صواباً فقد بهرهم ذكاء الرجل ووافقه المأمور على ذلك .

وعلى الرغم من أن هذا الحل كان خطأ ومضحكاً فقد نفذ لأن المأمور قبله فى لحظة كان عقله مختلطاً فيها وأخذت الجواد بعد أن أخذت الباقى من ثمنه ودفعت للتاجر أجرة طعامه ، ثم رددت الجواد للفلاح والسرج واللجام للساعى وكانت الخسارة كلها على التاجر والمكسب كله لى

الفصل السابع عشر

حاجى بابا يبدأ عهداً جديداً فى الحياة

حمدت الله على خلاصى من هذا المأزق واستأنفت

سيرى إلى سوق الثياب لأشترى منه ثوباً غالياً تنفيذاً للخطة التي رسمتها .

ولما وصلت لأول حانوت طلبت جبة حمراء من الجوخ الثمين لأنني كنت دائماً أشعر بالاحترام لمن يلبسون مثل هذه الجبة فنظر إلى البائع من رأسي إلى قدمي : « لمن تريد هذه الجبة ومن الذي سيدفع ثمنها ؟ »

فساءني هذا السؤال وقلت : « لماذا ؟ أريدها لنفسي وأنا الذي سأدفع الثمن ؟ »

فقال : « ولماذا يلبس مثلك مثلها ؟ إنه لا يلبس الجوخ الأحمر غير الميرزا أو الخان ولا شك عندي أنك لست أحدهما »

كاد الغضب يتملكني فأهينه لولا أن دلالاً مرّ في هذه اللحظة من أمامي ومعه ثياب من جميع الأنواع ، ولكنها مستعملة فذهبت إليه وبالرغم من أن صاحب الحانوت أخذ يدعوني لأنه ندم على إبعادي عنه بالوسيلة التي اتبعها .

ومشيت مع الدلال إلى ركن من الطريق بالقرب من باب المسجد وجلس على الأرض وأخذ يعرض عليّ مامعه من الثياب، فأعجبني ثوب حريري مزركش بالذهب وبه زرائر ذهبية . ولما سألته عن ثمنه أقسم لي أن الثوب كان لنديم من ندماء الملك وأنه لم يلبسه إلا مرتين فقط . ولأجل أن يغريني بشرائه وضع هذا الثوب عليّ وأخذ يدور حولي ويقول : « ماشاء الله ! ماشاء الله ! » فعزمت على شراء الثوب وطلبت منه شالا من الكشمير لأجعله حزاماً فقدم لي شالا قديماً به كثير من الثقوب وأقسم أنه كان مملوكا لسيدة من سيدات القصر الملكي . وقال إنه سيبيعه بثمن زهيد . فأخذت الشال وجعلته حول خصري محاولا إخفاء ثقوبه فلم أجد به عيباً بعدلفه، ورأيت أنه لا ينقصني إلا خنجراً أضعه في هذا الحزام فأصبح مثل سائر الوجهاء ، وطلبت من الدلال خنجراً فقدمه لي ووضعته في الحزام فأعربت عن رضاي لأني أصبحت في هذا الزي كأحسن رجل في طهران

ولما بدأ دور المساومة وجدت الأمر أصعب مما كنت أتوقع، وأخذ الدلال يقسم لي أنه شريف وأنه ليس مثل سائر الدلالين الذين يطلبون مائة ثم يبيعون بخمسين، وقال إن الثمن الذي يطلبه هو الثمن الذي لا يستطيع أن يبيع بأقل منه . وطلب مني خمسة طومانات للجبة وخمسة عشر ثمناً للشال وأربعة للخنجر فتكون الجملة أربعة وعشرين طومانا

لما سمعت ذلك أسفت لأنه لم يكن معي غير عشرين طومانا فقلت له إني لا أريد الشراء ونزعت ثيابه وأخذت ألبس ثيابي فاستمهلني الدلال قائلا: « إذا كنت استكثرت الثمن فكم تريد أن تدفع ؟ »

قلت إنه لا يريد أن يبيع على ما يظهر وإنني لن أدفع أكثر من خمسة طومانات. فرفض البيع بهذا مظهراً لي أشد احتقار ، ورددت إليه الثياب فأخذ يطويها وظهر أن المساومة انتهت بيننا عند هذا الحد ولكن الرجل نظر إلي وقال : « إنني أشعر بمودة نحوك وسأبيع لك بما لا أقبل أن أبيع به لأخي فادفع عشرة طومانات » . فرفضت وأصررت على الثمن الذي عرضته . وأخذ يقلل من مقدار ما يطلبه حتى اتفقنا في النهاية على ستة طومانات فدفعتها له وأخذت الثياب

كان أول غرض لي بعد أن اشتريت أن أذهب إلى الحمام فذهبت إليه . وفي أثناء الطريق اشتريت

حذاء أخضر وقميصاً أزرق وسروالا قرمزياً ووضعت ذلك كله فى منديل واستأنفت سيرى إلى الحمام

لم يلتفت أحد إلى ساعة دخولي لأن رجلا مثلى فى الثياب التى كانت لا تزال على لا يستثير اهتمام الناس . وكنت أعزى نفسى بأن هذه الحالة لاتلبث إلا ريثما أغير هذه الثياب بثيابى الجديدة وأن الناس فى داخل الحمام لا يتفاضلون تفاضلهم فى الطرقات بل تفاضلهم فيه بطول القامة وعرض الأكتاف ومظاهر القوة والشباب . وكنت فى ذلك أفضل الموجودين فى الحمام ونلت إعجاب من لو رآنى فى الطريق لازدرانى . واستدعيت دلاكين لتدليكى فوقفا بالقرب منى ينتظران أوامرى، فأمرت أحدهما بحلاقة رأسى وبأن يصبغ شعر لحيتى وشاربى

ولما بدأ فى التدليك أخذ يكرر إعجابه باتساع صدرى ، وحملنى تخيلى الحالة التى سأكون عليها بعد أن ألبس الثياب الجديدة على التظاهر بأننى تعودت سماع الثناء والاصغاء إليه . وقال لى الدلاك إننى جئت فى ساعة سعيدة لأنه فرغ لساعته من خدمة خان كبير يلبس خلعة أنعم بها عليه الشاه وأن هذا الخان لم يأت إلى الحمام إلا بعد أن أخبره المنجمون بأن هذه ساعة مباركة تناسب الاستحمام

وبعد أن فرغت من الاغتسال والتدليك ذهبت إلى الغرفة التى فيها ثيابى فلبست جديدها وطويت القديم . وكان الزهو يكاد يقتلنى كلما وضعت على جسدى قطعة منها

وأخيراً جاء الدلاك بالمرآة وهذا هو الرمز عندهم لانتهاء عملهم ومطالبتهم بالأجر فرجلت شعرى ورفعت طرفى شاربى إلى عينى ودفعت له الأجر بسخاء، وخرجت أمشى مشية الرجل الكبير الأهمية

الفصل الثامن عشر

عسكر خان يعود من الأسر — موقف ماجى بابا

مشيت توا إلى بيت عسكر خان فرأيت وأنا فى أول الطريق إليه جمهوراً كبيراً محتشداً عند بابه وعلمت أنه وصل لساعته ، وأنه دخل البيت من النافذة بدلا من الباب فى وسط احتفال لأن هذه هى العادة عند مايرجع إلى منزله رجل كان المظنون أنه قد مات

زججت بنفسى بين الجمهور ودخلت إلى الغرفة التى كان الشاعر موجوداً بها وهنأته بوصوله سالماً فى أحر لهجة ودية ، ولكن الشاعر لم يعرفنى فعرفته بنفسى ولم يكد يصدق أن الرجل الذى أمامه الآن فى أجمل ثياب وأرقاها هو ذلك الوغد القذر الثياب الذى كان معه فى أسر التركمان

وكانت الحجرة مزدحمة بالناس من جميع الطبقات، وكان بعضهم فى نهاية السرور بعودته سالما والبعض فى نهاية الحزن لهذا السبب . وكان من الفريق الأخير « ميرزا فاظل » ولكنه كان من أكثرهم ترحيباً به وإظهاراً لمودته . وقال له: « لقد كان مكانك شاغراً وكانت عيوننا متشوفة إليك

ثم حدثت ضجة بالمكان وفتح الباب ودخل ضابط مندوب من قبل الشاه وأمر عسكر خان بأن يلبس الثياب التى جاء بها من السفر ويذهب إلى الشاه . فتفرق الموجودون وذهبت فى جملة الذاهبين وفى عزمى أن أعود فى اليوم التالى، وفى طريقى قابلت ناظر الزراعة فقلت له : « هل رأيت أن كلامى كان صادقاً وأن عسكر خان لم يزل على قيد الحياة .

فأجابني : « نعم لقد صدقت فهو لا يزال على قيد الحياة ولكن الله كبير » ثم كرر الجملة الأخيرة مراراً وتركني وقد بدا عليه أنه يشعر بالبؤس والحزن الشديدين . وأمضيت يومي كما يقول المثل في تشييد قصور في الهواء . وجبت الأسواق لمعاينة ماعزمت على شرائه بعد أن تتحقق أحلامي ودخلت المساجد لأداء الصلاة والدعاء لله أن يوفقني إلى تحقيقها .

وفي أحد المساجد وجدت كثيرين ممن لاعمل لهم ولا شاغل يشغلهم غير التساؤل عن أخبار الناس والتحدث بها وقد سمعتهم يتكلمون عن عودة الشاعر عسكر خان وعن المقابلة التي قابله بها الشاه فقال البعض : إن جلالته قال عند ما سمع أنه لا يزال على قيد الحياة إن شاعره قد مات وإن الذي يدعي هذه الدعوى لا يمكن أن يكون إلا كاذباً وإن جلالته سيعاقبه على ذلك . وقال البعض إن جلالة الشاه لم يقل ذلك وإنه أعرب عن سروره بعودة شاعره وأعطى لمن بشره بهذا الخبر عشرة طومانات . ولكن الكثرة كانت متفقة على أن جلالته لم يسر بعودة عسكر خان لأنها ستخل بالنظام الذي كان قد وضعه لتقسيم تركته

ولكن عسكراً كان يعرف حب مولاه للشعر فنظم قصيدة بديعة وصف بها حالته في الأسر ومدح الملك بما لم يمدح به ملك من قبله، وإن الشاه سمع منه هذه القصيدة فطرب كل الطرب وأمر بأن يملأ فوه ذهباً وخلع عليه خلعة سنية

لما سمعت الخبر الأخير خرجت من المسجد لأهنئ الشاعر وأنال جائزة منه على هذه التهنئة . وقد وجدته ضاحكا مستبشراً ورأيت من عطفه على وإيناسه إياي ما شجعني على أن أطلب منه تعييني في خدمته أو التوسط لدى واحد من معارفه لأشتغل لديه ، وشرحت له حالتي بالتفصيل وذكرت له كل الحوادث التي حدثت لي . وقد استكشفت أن سبب اضطراب ناظر الزراعة عندما علم بعودة سيده هو أنه بدد كثيراً من أمواله عند ما اعتقد أنه قد مات . ورجوت أن أنال عمله ، فأخبرت الشاعر بكل ما سمعته عن هذا الناظر الخائن ، ولكنني مع الأسف لم أنجح فيما كنت أريده إما لأن الشاعر لم يثق بقولي وإما لأن الناظر استطاع إقناعه بأنه بريء. وبقي الرجل في عمله وبقيت منتظراً ما يجود به عليّ صاحبي في الأسر صدقة وإحساناً .

وأخيراً طلبني عسكر خان في صباح يوم من الأيام وقال لي : « حاجي بابا، أيها الصديق ، تعرف مقدار ما أجنه لك من الشكر على ما لقيته من عطفك وكلانا واقع في أسر التركمان وقد آن الوقت الذي يجب فيه عليّ إظهار عرفاني للجميل ، لقد تكلمت بشأنك مع ميرزا احمد « حكيمباشي » رئيس أطباء الشاه وذلك بمناسبة ما علمته من احتياجه إلى تابع . ولا شك أنه إذا وجد فيك ضالته فانه سيعلمك صناعته فتجد الطريق المؤدي إلى الغنى فاذهب إليه وقل له إنك أنت الرجل الذي حدثته عنه فانه سيغنيك في الحال »

لم أكن ميالا من قبل لمزاولة الطب وذكرت القصة التي سمعتها من الدرويش فشعرت نحو الأطباء باحتقار شديد . ولكن حالتي كانت حالة اليائس لأنني كنت قد أنفقت آخر دينار معي . ولم يعد أمامي غير أن أقبل أي عمل حتى ولو كان حرفة الطبيب .

وفى اليوم التالى ذهبت إلى منزل (الحكيمباشى) وهو مجاور لقصر الشاه ودخلت حديقته الواسعة المهملة فوجدت فيها على الجانبين غرفاً بها أسرة للمرضى ووجدت غرفة كبيرة أمامها أناس كثيرون فعلمت أنها غرفة الطبيب . وبقيت منتظراً عند بابها حتى يأتى دورى فيؤذن لى بالدخول

ولم يكن كل المنتظرين من المرضى بل كثير منهم من أصدقاء الطبيب أو أصدقاء أصدقائه ، وقد جاءوا لأمور عادية لا شأن لها بحرفته . والعادة فى البلاد الفارسية أن يستقبل الأطباء أصدقاءهم فى أوقات عملهم وأن يقدموا مقابلاتهم الشخصية على مقابلات المرضى . وفضلا عن ذلك فان موظفى القصر الملكى كانوا يدخلون حجرة الطبيب بغير استئذان ويطيلون المكث فيها والمرضى فى انتظار خروجهم عند الباب

كان هذا الطبيب متقدماً فى السن، عيناه غائرتان فى وجهه، وعظام وجهه كبيرة ، وشعرات لحيته ورأسه قليلة . وكان محدودب الظهر من كبر السن قليل الكلام يبادر مريضه بأسئلة قليلة متناهية فى الاختصار والايجاز، ويظهر الاشمئزاز إن كان الجواب طويلا ، وكان يبدو على وجهه أنه يفكر فى كل شىء إلا الشىء الذى يكون أمامه

ولما جاء دورى أخبرته بأنى أنا الذى كلمه الشاعر من أجلى فحدد فى نظره لحظة قصيرة ثم أمرنى بالانتظار لأنه كان يريد أن يكون كلامه معى على انفراد . وبعد أن انتهى من عمله مع الناس ناداني فذهبت معه إلى غرفة ضيقة ملحقة بمكتبه وهى التى يدعونها « الخلوة »

الفصل التاسع عشر

مراحل بابا يصير تابعاً لطبيب الشاه

جلس الطبيب وأمرنى بالجلوس فجلست مظهراً ما يجب إظهاره من الاحترام والرهبة عندما يتشرف حقير مثلى باكرام عظيم كطبيب الشاه . وقال لى إن الشاعر كلمه فى شأنى ، وقال إننى رجل يمكن الاعتماد عليه . وإننى قوى صبور وإننى جربت تجاريب كثيرة فى الحياة وإن لى اقتداراً خاصاً على كتمان الأسرار .

طأطأت رأسى مراراً وهو يكلمنى وكنت شديد الحرص على ألا تظهر قدماى فأخفيتهما تحت طرف الثوب واستمر الطبيب يقول : « وما دامت هذه صفاتك فستكون حاجتى إليك كبيرة . وليس يصلح لخدمتى من لم تتوافر فيه صفة من هذه الصفات . وأنا واثق بما يقوله عسكر خان ، فاذا رهنت أنك عند ظنه فيك فستجد عندي فوق ما يرضيك » ثم أدنانى منه وقال لى بصوت خافت كأنما يخشى أن يسمعه إنسان : « لقد جاء أخيراً سفير من أوربا وفى حاشيته طبيب كبير وقد نال هذا الكافر شهرة واسعة وهو يعالج مرضاه بطريقة جديدة علينا . وليس فى وسعنا أن نتعلمها الآن . وجاء بصناديق مملوءة بمئات الأدوية التى لا نعرف أسماءها ، وهو يدعى أنه يعرف أشياء يجهلها جميع الأطباء الفارسيين، ولا يفرق بين الأمراض الحارة والأمراض الباردة، ولا بين الأدوية الحارة والأدوية الباردة . وهو لا يتبع نظريات جالينوس وابن سينا بل يقول إن علمهما قد أصبح الآن علماً قديماً . وأغرب من ذلك أنه يدعى القدرة على منع مرض

الجدرى بجرح يحدثه في الذراع ويضع مادة فيه يقول إنه يستخرجها من البقر . ونحن لا نريد أن نسمح له بأخذ القوت من أفواهنا ومزاحمتنا فى حرفتنا وفى بلادنا . ومن أجل ذلك أشعر بحاجة كبيرة إلى مساعدتك

ولقد مرض رئيس الوزارة منذ يومين بعد أن أكل مقداراً كبيراً من الخس والخيار . وأنا لم أعرف مرضه . وعلم السفير بمرضه فأرسل إليه طبيبه . ولكن كان بين رئيس الوزارة وبين السفير عداوة على ما يظهر لأن السفير يلح فى طلب امتياز سياسى لدولته ويرى رئيس الوزارة أن فى إجابة ذلك الطلب مساساً بمصالح فارس، فرفضه وغضب السفير من الرفض ، ويظهر أن هذا المرض جاء فرصة مناسبة للصلح بين شخصيهما بغض النظر عن موضوع الخلاف فأرسل السفير الطبيب مجاملة . ووجب على رئيس الوزارة أن يجامله كذلك بألا يرد الطبيب . ولو أننى علمت بهذا الأمر فى الوقت المناسب لاحتلت بأية حيلة لمنعه ، وقد سمعت أن هذا اللعين قد أعطى رئيس الوزارة قطعة واحدة من دواء أبيض عديم اللون والرائحة فخففت ألمه . وكان تأثيرها قوياً عجيباً وقد دهش رئيس الوزارة حتى صار لا يتحدث إلا عن قدرة هذا الطبيب . وتسامع كل أهل القصر بذلك حتى إن الشاه نفسه أظهر دهشته وإعجابه ، واستدعى رئيس الوزارة ليقص الأمر على مسمعه . وكنت موجوداً فى ذلك الوقت . فأمرنى الشاه أن أبين ما أعرفه عن هذا الدواء وعن العلة، فبذلت كل ما فى وسعى لإخفاء اضطرابى، وقمت فقبلت الأرض بين يدى جلالته وقلت : « إن نفسى فداك يامليك الملوك ! إننى لم أر ذلك الدواء الذى أعطاه الطبيب الكافر لدولة الوزير ، ولكننى متى رأيته أخبرت جلالتكم عن عناصره . ولكننى أقول منذ الآن إن المرض كان سببه تلبس الشيطان بجسم الوزير بدليل أن الشفاء جاء على يد طبيب كافر لا يصدق بديننا ولا يؤمن بنبينا

قلت ذلك لكى أزعزع الثقة التى نالها هذا الطبيب، ولكننى كنت فى نفسى شديد الرغبة فى معرفة الدواء الذى استعمله . وأنت قد جئت لحسن الحظ فى الوقت المناسب. وسأعتمد عليك فى مساعدتى. والذى أريده منك هو أن تتصل به وتخدمه حتى تأخذ عنه علمه . ولكنى أريد قبل كل شئ وفى أقرب وقت أن تعرف لى الدواء الذى أعطاه لرئيس الوزارة لكى أخبر الشاه عنه . اذهب الآن إلى السوق فاشتر خساً وخياراً وكل منهما مقداراً كبيراً وتعارض إن لم يصبك المرض حتى يبدو لمن يراك أنك صرت بالحالة التى كان عليها الوزير واستدع الطبيب الأوربى فانه سيعطيك نفس الدواء الذى أعطاه للوزير فلا تتجرعه ولكن جئنى ثم تناوله بعد أن أفحصه

أزعجنى هذا المشروع الخطر فقلت : « إننى سأتبع كل ما تشير به ولكننى أخشى ألا يقبل علاجى ولا تستطيع أنت أن تداوينى أو أن يكون الرجل ذكياً فيعطينى دواء آخر، وقد سمعت أعاجيب عن الأطباء الأوربيين ، ومع ذلك فدلنى على الطريقة التى أصل بها إليه »

فقال : « إن عوائد هؤلاء القوم وأخلاقهم تنافى عوائدنا وأخلاقنا منافاة تامة . وسأخبرك بشىء عنهم يعطيك فكرة عن مقدار التناقض بيننا وبينهم . إنهم بدلا من أن يحلقوا رءوسهم ويطلقوا لحاهم وشواربهم — كما نفعل نحن — يحلقون اللحى

والشوارب ويتركون شعر رؤوسهم نامياً كالنساء ولا يأكلون بأيديهم كما نفعل نحن بل يأتون بقطع من الحديد لها عدة أطراف محدودة وينقلون بها الطعام من الأطباق إلى أفواههم غير مبالين بأن يجرحوا ألسنتهم أو شفاههم ، وهم لا يخجلون من لبس ثيابهم الضيقة التي تظهر كل جزء من أجسامهم كأنما أحدهم يمشي عارياً في الطريق ، وهم لا يصلون خمس صلوات في اليوم مثلنا ولا يرون في تركهم الصلاة إثماً ولا معصية . وصفوة القول أن كل شيء عندنا مخالف لكل شيء عندهم ، وهم أقذر ناس خلقهم الله لأنهم لا يعرفون النجس من الطاهر ، فهم يأكلون لحم الخنزير ويشربون الخمر ويدفنون الميت دون أن يغسلوه ليطهر ويفعلون كل شيء ولا يطهرون بعده أجسامهم بالماء »

قلت : « نعم لقد سمعت أن كل ذلك من صفاتهم وسمعت أيضاً أنهم حمقى فاذا أظهرت لأحدهم الشك في قوله أو قلت إنه كاذب حاربك من أجل ذلك حتى يقتلك أو يموت »

فقال الطبيب : « هذه أيضاً إحدى الصفات التي سمعتها عنهم وأحذرك في معاملتهم من شيء هام وهو إياك أن تقول لأحدهم على سبيل المجاملة كما يقول أحدنا للآخر : « هذا الشيء لك أو هو تحت تصرفك » فانه سرعان ما يعاملك بقولك فيأخذه ، فهم لا يعرفون هذه المجاملات ، ولا نقل لهم إلا الحقيقة فان ذلك يلائم طباعهم »

قلت : « إذا كان هذا شأنهم فهل تظن أن الطبيب سيغفر لي كذبي عليه واستدعائي إياه لكي يعالجني من المرض وأنا لست مريضاً ؟ »

فقال الطبيب : « كلا ياحاجي بابا ، إنك ستكون مريضاً بالفعل ، فاذهب في الحال وكل أكثر ما تستطيع أكله من الخس والخيار وهات لي الدواء الذي سيعطيه لك في هذه الليلة »

ثم منعني عن الاستمرار في مناقشته فأمسك بيدي وأخرجني برفق من حجرته فخرجت وأنا لا أعرف هل أضحك أم أبكي من هذا الاتجاه الذي اتجهت حياتي فيه ومن اضطراري إلى استدعاء المرض لنفسي دون أن أعرف ماذا يكون أجري على تحمل آلامه

وبعد أن ابتعدت عن حجرة الطبيب وقفت وحدثتني نفسي بأن أعود إليه وأساومه على الأجر ولكنني لما عدت إلى الحجرة لم أجده فيها ، ويظهر أنه صعد إلى منزله ، فاضطررت إلى الذهاب حيث وجهني

الفصل العشرون

حامي بابا يخدع طبيبين

سألت عن منزل السفير وأنا أنوي أن أنفذ ما أشار به الطبيب ولكنني كنت أعتقد أن أكل الخيار والخس وإن أثر في معدة الوزير الهرم فلن يؤثر في معدة قوية لشاب مثلي

على أنه لم يكن أمامي بد من الحصول على دواء الطبيب الأوربي بأية حيلة ، وقلت لنفسي إنني إذا ادعيت المرض فان هذا الطبيب سيعرف الحقيقة ويطردني من منزله فقضلت أن أزعم أنني خادم لحرم الشاه وأختلق قصة أنال بها ما أريد . وعرجت على حانوت لرجل يبيع الثياب فاستأجرت منه ثوباً كالثياب التي يلبسها في العادة خدم القصر الملكي وتصنعت حالة تدل على أنني لست خادماً عادياً بل من رؤساء الخدم ، وتذكرت ما قاله لي ميرزا أحمد

فاقتربت من باب السفير وأنا خائف متردد

وجدت القسم الذى يشغله الطبيب فى منزل السفير مملوءاً بالنساء الفقيرات وكل واحدة منهن تحمل طفلا على ذراعيها، وقيل لى: إنهن جئن ليفصدن الأطفال وقاية من الجدرى . ويظهر أن أسباباً سياسية حملت السفير وطبيبه على التطوع لخدمة الطبقات الفقيرة فى إيران

لما دخلت الغرفة وجدت رجلا فى وسطها أمام منضدة خشبية عليها أكداس من الكتب وآنية فيها المادة التى يستعملها فى التطعيم وكانت ثيابه مثل الثياب التى وصفها لى ميرزا أحمد والتى رأيت بعض الأوربيين يرتدونها

وكان حاسر الرأس مما يدل على عدم احترامه الناس، وحول رقبته قطعة من القماش كأنما يريد أن يخفى مرضاً بها . وثيابه شديدة الالتصاق بجسده خصوصاً الجزء الأسفل من ثوبه لأن شكله فيه كان غير لائق ، وهو مناف كل المنافاة للآداب . وكان حذاؤه فى قدميه فلم يخلعه ولم يبال بالسجاجيد الثمينة التى هو واقف فوقها على، النقيض منا نحن الفارسيين فاننا نخلع الحذاء فى داخل الغرف

وجدت هذا الطبيب يتكلم بلغتنا وسألنى ساعة رآنى بتلك اللغة عما أريده، فوجدت الواجب يقضى بتجميل الرد جهد الطاقة فقلت له : إن شهرته قد انتشرت فى جميع البلاد الفارسية بأنه لقمان زمانه . وأن ليس فى هذا العصر من يضارعه أو تحدثه نفسه بمنافسته

فلم يجبنى بحرف عما قلته ، ويظهر أيضاً أنه لم يطرب من هذا الثناء كما يطرب أحدنا عندما يسمع مثله . وقلت له : إن الملك نفسه علم بتأثير دوائه فى نفس الوزير وأمر مؤرخيه بأن يقيدوا فى تاريخ البلاد هذا الحادث على اعتبار أنه من أعجب الأشياء الخارقة للعادة فى مدة حكمه ، وإن سيدات القصر سمعن باسمه فقلن إنهن لن يتداوين عند غيره إن مرضن، وإن جاريته الشركسية مريضة بالفعل وإن « الأغا باشى » أرسله بأمر خاص من جلالة الشاه لكى يحصل على دواء مماثل للذى أخذه الوزير . وختمت قولى بطلب هذا الدواء

ظهر لى أن الطبيب أخذ يفكر فيما سمعه منى وقال لى بعد مدة وجيزة: إنه ليس من عاداته أن يصف دواء لمريض لم يره لأن ذلك قد يكون أكثر ضرراً للمريض من عدم العلاج بتاتاً ، وإنه على استعداد لمعالجة الجارية إن سمح له برؤيتها . فأجبته على ذلك بأن رؤية أوجه السيدات ممنوعة قطعاً ، وأنه عند الضرورة القصوى يسمح بجس النبض دون رؤية الوجه على شرط أن تكون اليد مستورة برداء

قال لى الطبيب إنه لا يستطيع معالجة المريض بجس نبضه فقط بل يجب أن يرى لسانه أيضاً .

فقلت له : إن رؤية ألسن السيدات أمر لا عهد لنابه فى البلاد الفارسية ، وإن تحقيق هذا الشرط يستدعى صدور أمر خاص من الشاه ولكن الذى يعرض أمراً كهذا على جلالته يعرض لسانه للقطع عقاباً على جرأته .

قال لى الطبيب : « تذكر إذن أننى إذا أسلمت لك الدواء فانما أسلمه على شرط ألا أتحمل مسئولية من تأثيره لأنه قد يقتل بدلاً من أن يشفى » فلما أكدت له أن ليس هناك مجال للخوف فتح صندوقاً كبيراً مملوءاً بالعقاقير وأخرج ذروراً أبيض وضمه فى غلاف أبيض صغير ودفعه إلى فسألته عن نوع هذا الدواء وعن تأثيره، فقال لى بغير التحفظ الشديد الذى يبديه أطباء فارس — كل الذى أردت أن أسمعه . ولو كان المسئول طبيباً فارسياً لما فهمت من كلامه غير أسماء أبقراط وابن

سينا ولقمان، لكثرة ما يلجأون فيه من الابهام والغموض .

ولما وعيت ما قاله شكرته ورجعت فى الحال إلى ميرزا احمد طبيب الشاه وقد كان ينتظر عودتى بصبر نافد، وتظاهرت بأننى مريض لأوهمه أننى أكلت الخيار والخس وأننى بسبب ذلك مرضت كما مرض الوزير فتأثر الطبيب الفارسي من رؤيتى وأظهر لى ما يشبه الشفقة .

قلت له بألفاظ متقطعة كالمريض الذي أشرف على الوفاة : « لقد دخلت عيادة ذلك الطبيب واتبعت أوامرك فأنجدنى وأنا منتظر كرمك »

فحاول ميرزا أحمد أن يحصل منى قبل كل شيء على الدواء الذى أتيت به ولكننى قبضت يدى وتركته يفهم أنى أنتظر جزاء سريعاً وأننى مصمم على ابتلاع الدواء لأشفى من مرضى إذا لم يعجل بمنحى ما أستحقه من التعويض

وكان خوفه شديداً من عدم الحصول على الدواء وعجزه تبعاً لذلك عن إجابة الشاه على ما سأله عنه فقدم لى قطعة من النقد الذهبي وتلطف معى ليحصل على هذا الدواء أكثر مما يتلطف عاشق أمام حبيبته . وأردت أن أزيد فى التصنع حتى أحصل منه على قطعة ذهبية أخرى ولكنى رأيت الطبيب يجهز لى دواء ليشفينى من المرض الذي أتظاهر به وخشيت من دوائه ، فلت إلى الانتهاء من تمثيل هذا الدور وتركت له الدواء .

فلما أخذه نظر إليه باهتمام شديد وقلبه بين يديه وظل كذلك مدة طويلة دون أن يبدو عليه أنه عرف شيئاً عنه فقلت له: إن الطبيب الأوربي أخبرنى عن المادة التى صنع منها الدواء وعن طبيعته وتأثيره . فأصغى إلى باهتمام شديد ثم قال : « كأنى كنت ناسياً كل هذه الأمور الأولية التى تعلمتها فى أول عهدى بمدرسة الطب »

وكان فى جملة ما قلته له : إن الزئبق يدخل فى تركيب هذا الدواء

فقال : « وهل يريد هذا الكافر اللعين أن يسمم أجسامنا بالزئبق ويضيع بهذا الجهل شهرتى الواسعة التى لم يحلم بمثلها أبوه ؟ إن الزئبق بارد والخس والخيار باردان أيضاً، فهل الثلج يذيب الثلج؟ إننا لا نعالج الأمراض الباردة إلا بأدوية حارة والعكس بالعكس ، وهذا الحمار لا يعرف المبادئ الأولية فى علم الطب فيجب ألاّ نسمح له بالضحك على ذقوننا بهذا الشكل »

وقبل أن يتم ملاحظاته جاء رسول من قبل الشاه يدعوه إليه، فأسرع فى لبس الثياب التى يقابل بها جلالته وأخذ معه الدواء وذهب مسرعاً مع الرسول

« يتبع » عبد اللطيف النشار

المجموعة الأولى
للرواية
١٥٣٦ صفحة
فيها النص الكامل لكتاب اعترافات فتى العصر لموسيه ، والأوذيسة لهوميروس، ومذكرات نائب فى الأرياف لتوفيق الحكيم ، وثلاث مسرحيات كبيرة و ١١٦ قصة من روائع القصص بين موضوعة ومنقولة .
الثمن ٣٤ قرشاً مجلدة فى جزءين
و ٢٤ قرشاً بدون تجليد
خلاف أجرة البريد

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المبدرلى - عابدين ﴾